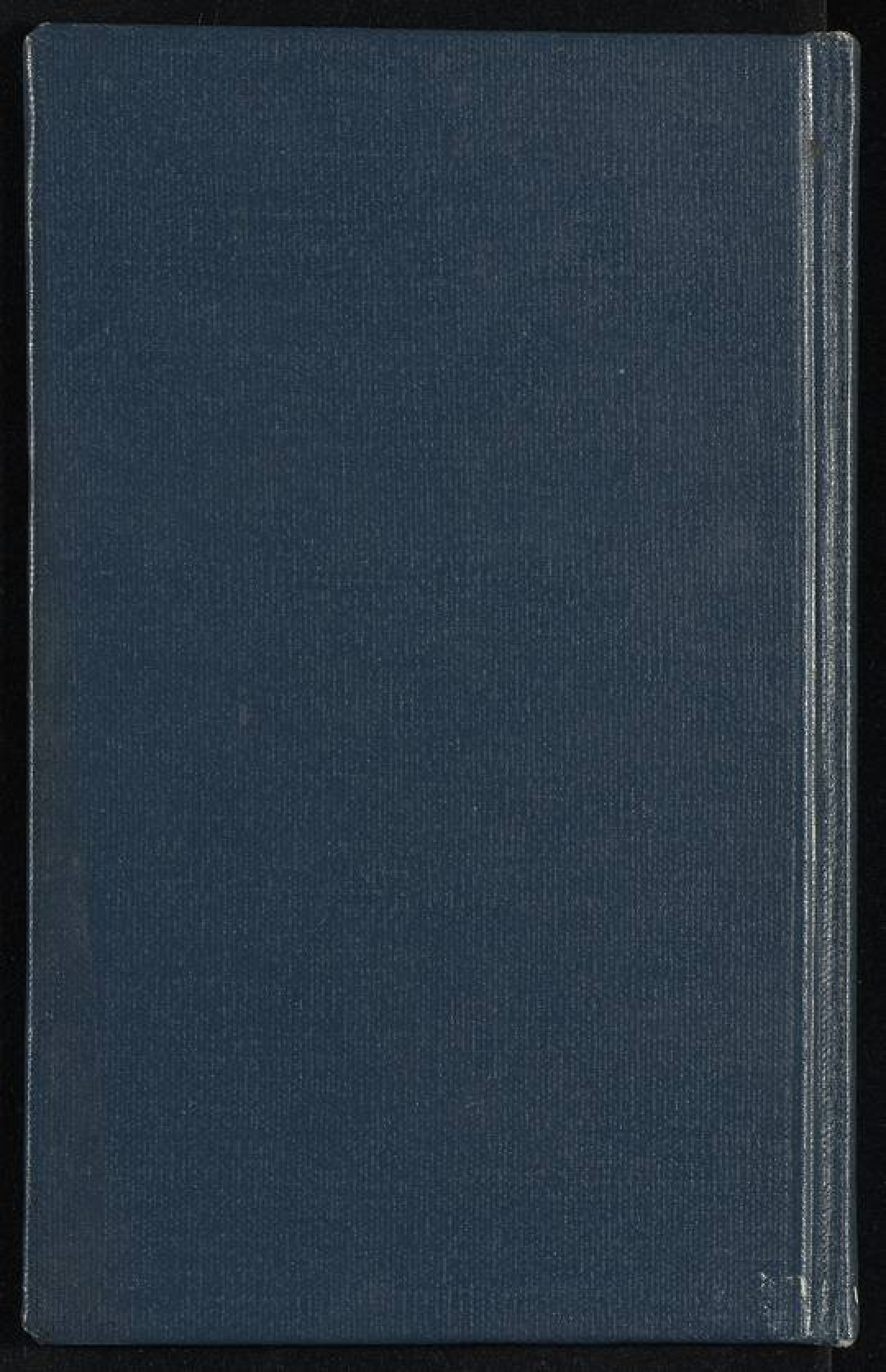
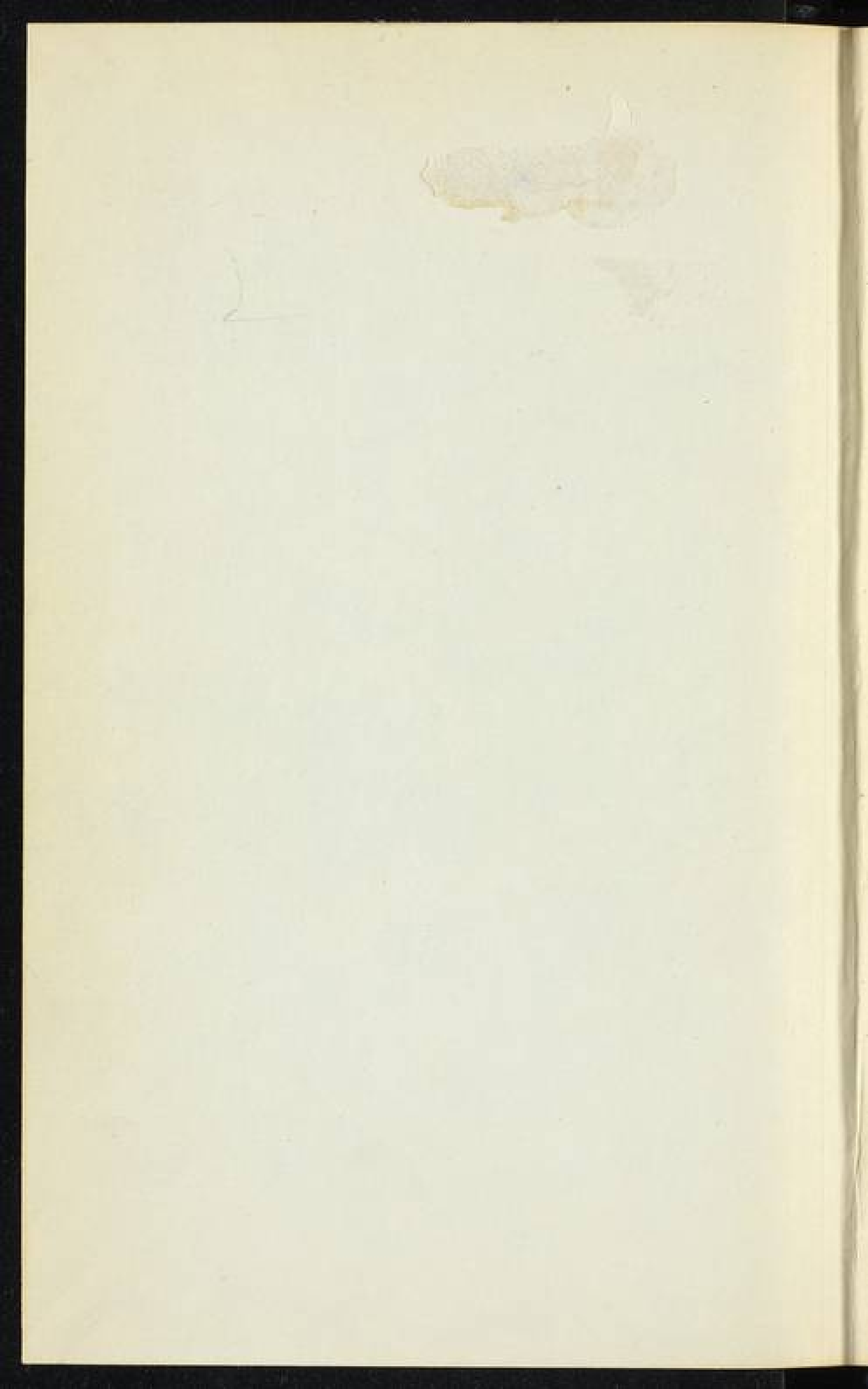
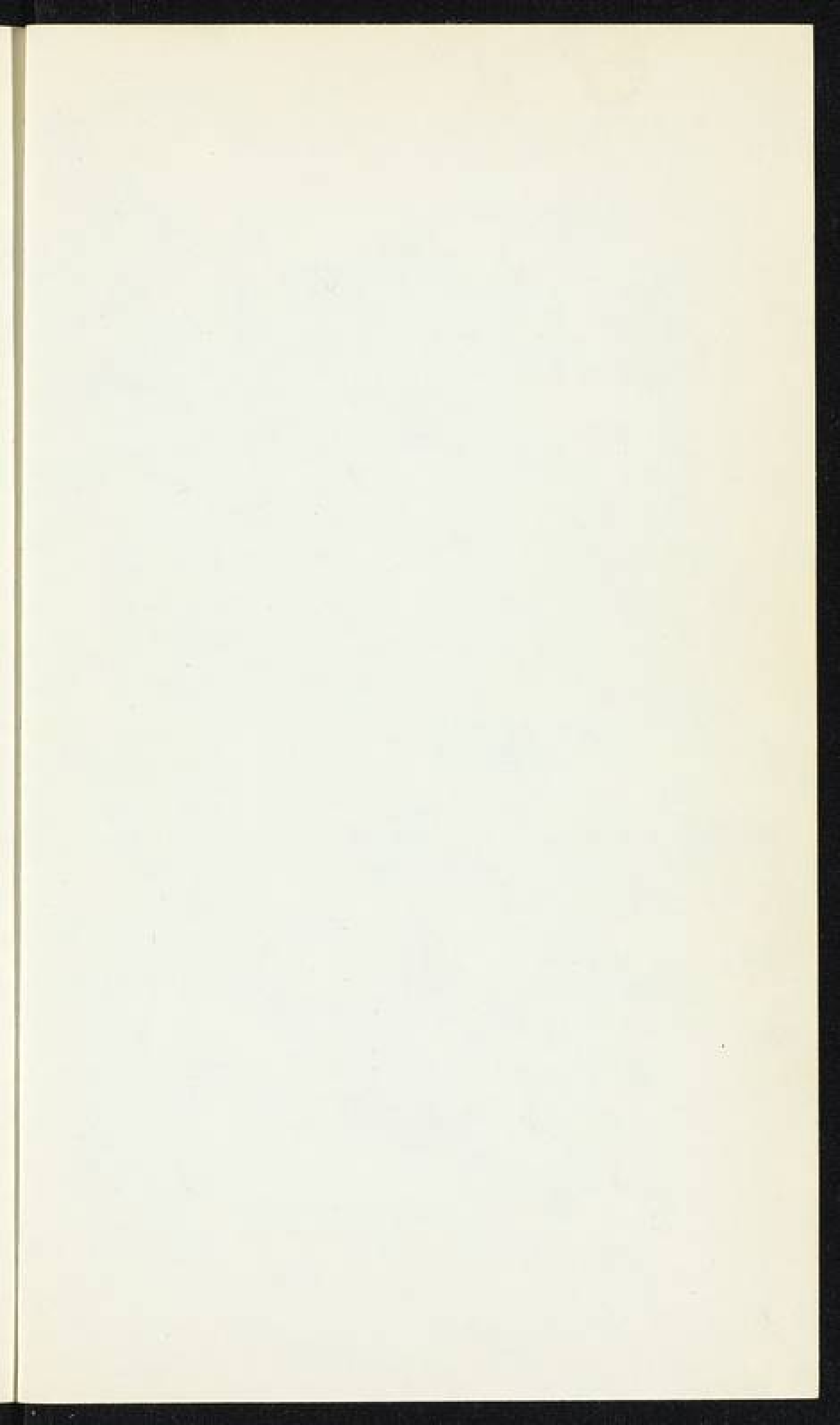
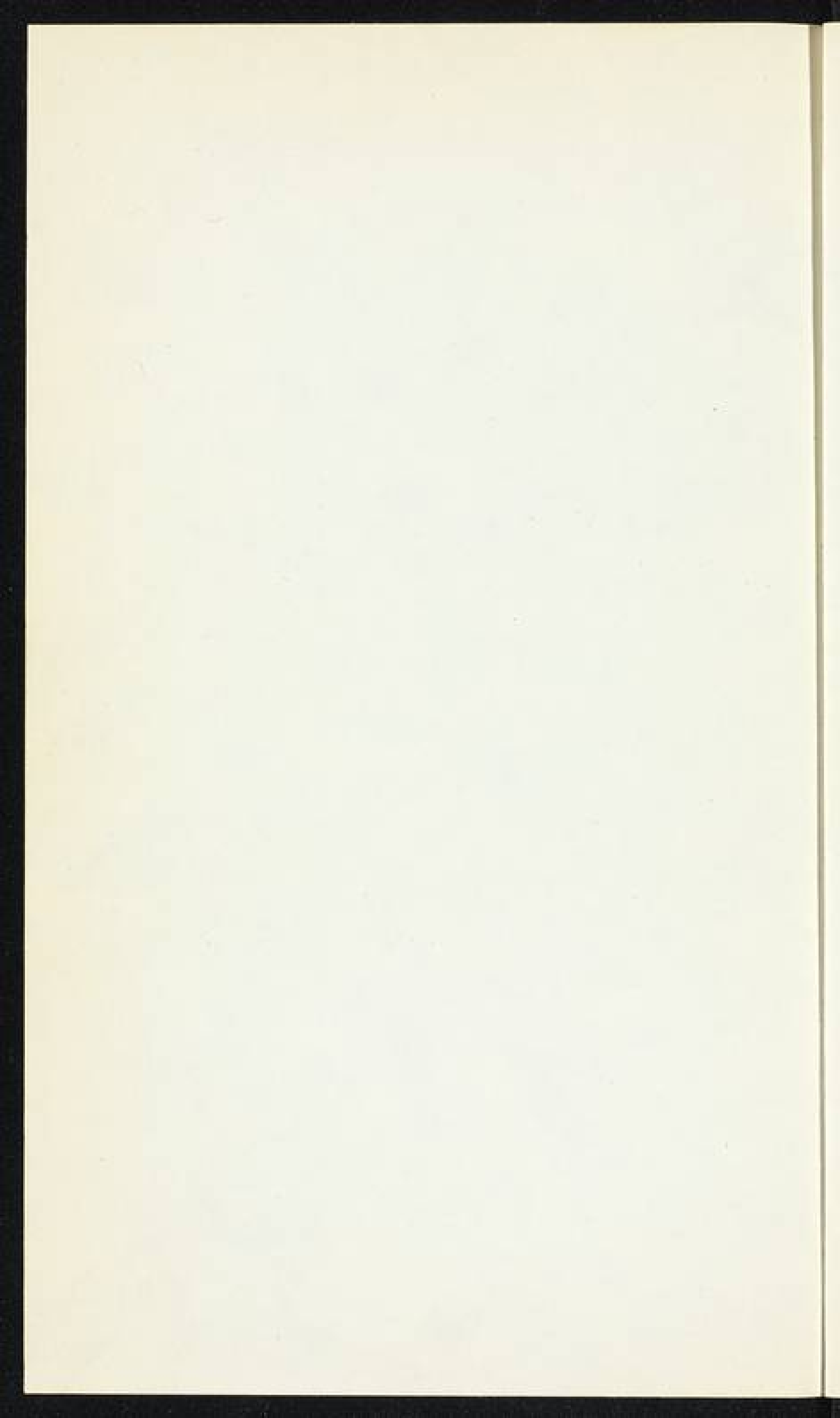
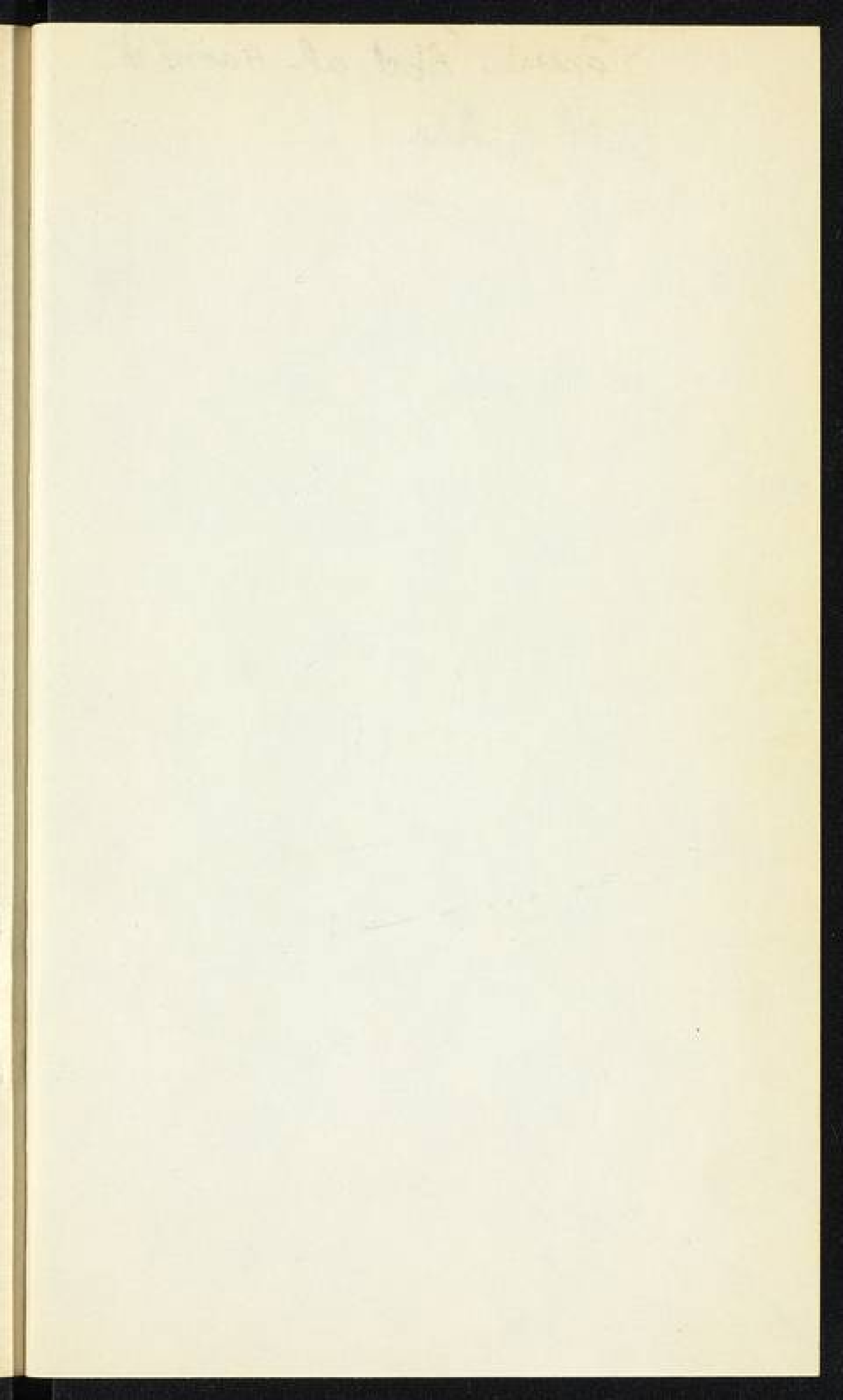










Yunus, Abd al-Hamid.
al-Azhar ....

الأزهر

245

للأستاذين

عبد الحميد يونس
عثمان توفيق

الطبعة الاولى

الناشر: دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كلمة الناشر

عند ما أخرجت للناس الكتاب الأول «الطاقة الروحية» لم أحاول تصديره بكلمة تبين الفكرة التى أنشأت من أجلها «دار الفكر العربى» فقد كنت مزمعاً أن لا أصدر أى كتاب من كتب الدار، ولكن اللقاء الحسن والتقدير الجميل اللذين قوبل بهما كتابى الأول جعلنى أبادر بالاتصال والتعرف بقراء «دار الفكر العربى».

«فدار الفكر العربى» لم تقم على نشر الكتب حيثما اتفق ... بل عن اختيار وانتخاب، مسايرة منها ... للنهضة الفكرية الحديثة. إذ يقوم بهذا الاختيار وذلك الانتخاب لجنة من خيرة الأساتذة والكتاب بمراجعة ما يعرض على الدار من الكتب الموضوعة والمترجمة والمخطوطة.

وإن البصير بالنهضة العلمية ليلحظ أن ثمة سببا له خطره هو الذى يحول بين اقتراب الشرق من الغرب، وذلك هو تأخر المكتبة العربية الحديثة عن أختها الغربية، فالثقافة هى العمود الفقرى الذى تقوم عليه حضارة الشعوب. وإذن فلم يكن ثمة بد من تلوين إنتاج الدار تلوينا حيويا لملء الفراغ الموجود بالمكتبة العربية.

والدار تحاول بعملها هذا نشر الثقافة العربية وما يترجم من الثقافة الغربية لتكون الثقافتان فى متناول القارىء العربى. وليكون عمل الدار عملا وطنيا قبل كل شىء.

وإن نظرة فى الكتاب الأول وما حواه من موضوعات طلع بها

على الناس والأسئلة حيرى فى الصدور تريد الجواب عماجد فى السكون بعد أن غشت المادة الأبصار وصمت الأسماع ولا غرو فان المؤلف هو «هنرى برجسون» فيلسوف فرنسا المعاصر ، والمترجم هو الأستاذ سامى الدروبى الذى أتاح لنفسه فرصة السبق فى ترجمة مؤلفات ذلك الفيلسوف ، أما الكتاب الثانى «الأزهر» الذى نقدمه اليوم ، فهو كتاب فى موضوع الأزهر نفسه وإن كان حوله لافيه مباشرة . ذلك لأن الأزهر قد قام بواجبه فى إشاعة الثقافة ألف سنة أو تزيد وهو من إنتاج أستاذين نابهين لهما مكانتهما فى عالم التأريخ .. تفسيراً وتفصيلا ...

وسيعقب الكتابين كتب . . و . . كتب تدفع بنفسها إلى مكانها الشاغر فى المكتبة العربية . .

وحسبي فوق ذلك كله أنى أعمل جاهداً على إصدار الكتب بما يتناسب معها من جودة الطباعة والورق والرسوم الملونة تمشياً مع النهضة الفنية ومحاولة بث الذوق والجمال الفنى فى الطباعة .

وليس من سبيل لإتمام ذلك البرنامج إلا بدعوة الكتاب والمترجمين فى جميع البلاد العربية إلى المساهمة فى هذا العمل الأدبى الرفيع بإعطاء الفرصة « لدار الفكر العربى » بمراجعة تواليفهم والعمل على نشرها .

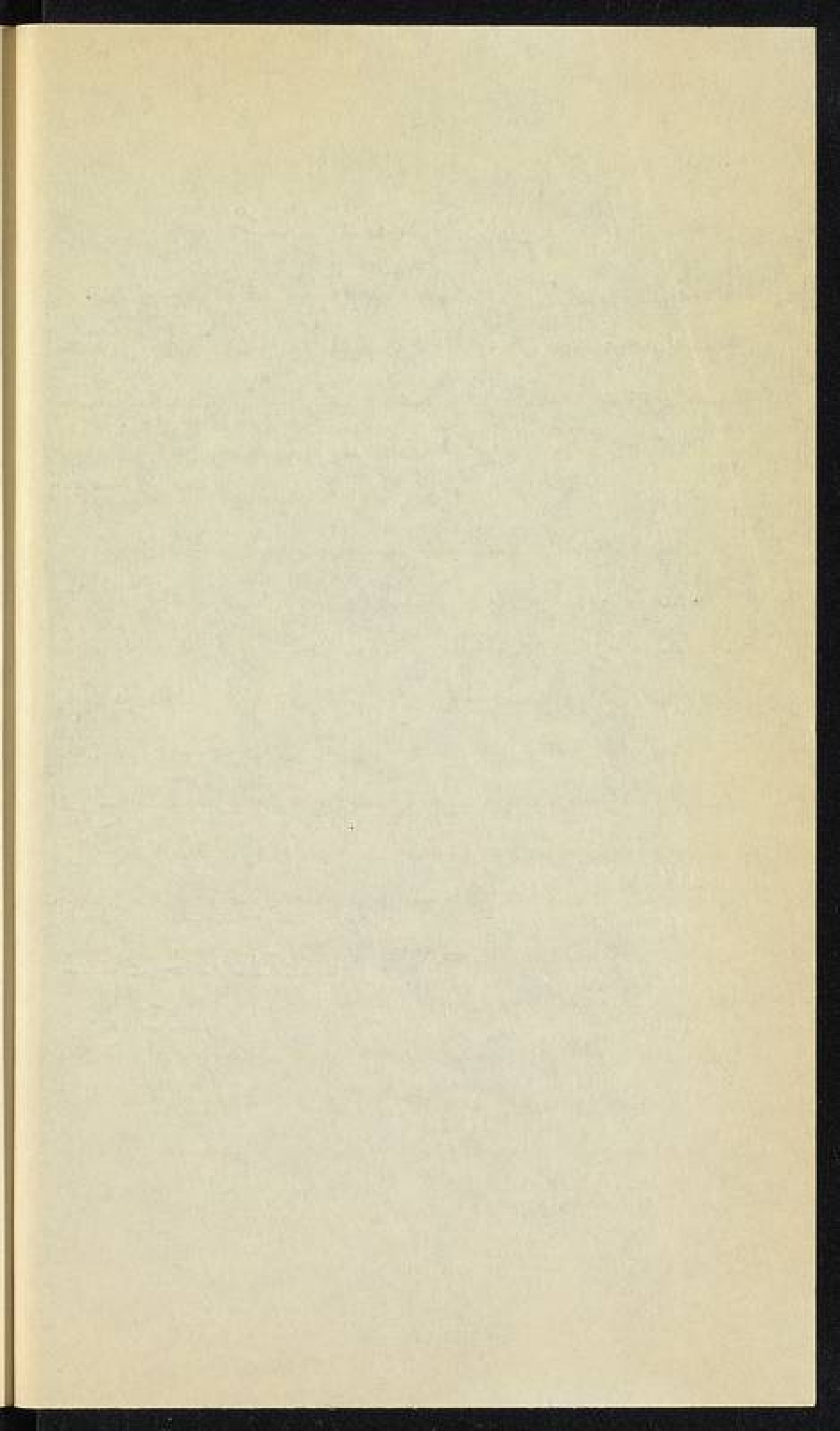
والدار ، وهذا برنامجها ، لا تألو جهدا فى الأخذ بنصيحة كل ناصح والعمل بمشورة كل مخلص ...

نسأل الله تعالى أن يوفقنا فى ظل راعى الكتاب العربى مولانا جلالة الملك « فاروق الأول » حفظه الله ؟

٣٠ — ٧ — ١٩٤٦ محمد محمود الخضرى

محتويات الكتاب

صفحة



تتوسع حكومة مصر بل وحكومات الشرق العربى فى إرسال البعثات العلمية إلى الجامعات الأوربية المشهورة ، رغبة منها فى مسايرة الحياة العقلية العالمية التى تخلفت عنها أمداً ليس بالقصير ، فهل فكر أحد فى أن هذه الجامعات الأوربية المشهورة إنما نشأت حكاية عن الجامعات الإسلامية القديمة التى سبقتها فى الظهور ؟ . .

يعترف الباحثون الغربيون أنفسهم بهذه الأسبقية التاريخية ويؤيدونها بما كان بين الجامعات فى العالمين : الشرقى الإسلامى ، والغربى المسيحى من تشابه خطير ، فقد كانت المواد التى يدرسها طلاب العلم المسلمون فى القرنين العاشر والحادى عشر ، هى بعينها المواد التى كان يحتفل بها الدارسون المسيحيون فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كما أن الدراسة المنظمة ، والعلاقة بين الشيخ وتلميذه ورسوم الدراسة والهبات المالية وإقرار النظام ومنح الدرجات العلمية ووجود طوائف من الأجانب تنتظم فى جماعات طوال حياتها الدراسية ، كل هذه المظاهر كانت تتسم بها الحياة الجامعية سواء أكانت الجامعة فى بغداد أو فى أكسفورد .

وأهم من هذا كله ، هذه الإجازة التى كان يمنحها الشيخ المسلم تلميذه للتدريس أو لقراءة متن معين ، فقد كانت تشبه « ليسانس المعلم » التى جرت عادة الجامعات الأوربية على منحها فى القرون الوسطى .

ونحن نجد بعض الذين يتخرجون فى الجامعات الأوربية يذيلون أسماءهم بألقابهم العلمية ومنها «بكالوريوس» فى العلوم أو الطب أو الآداب

وقد جهدت بعض المجامع العلمية واللغوية فى نحت كلمة عربية تدل على معناه ، فهل وقع فى خلد أحد من أولئك وهؤلاء أن هذا اللقب قد يكون من أصل عربى ؟ . . .

لقد حار أصحاب معجم أكسفورد الانجليزى على بصرهم ، بمقارنة اللغات فى أمر هذا اللقب « بكالوريوس » ولم يستطيعوا أن يردوه إلى أصله فى لغة من اللغات ، ولعل أقدم من استعمل هذا اللقب ، الشاعر رولان أحد فرسان شرلمان فى أغنيته المشهورة باسمه وهو الذى هلك على جبال البرانس فى عودته من قتال المسلمين فى الأندلس ..

ومن يدرى فربما كان لقب « البكالوريوس » تحريفا لعبارة « بحق الرواية » التى كانت تلحق الإجازة ومعناها « حق التعليم بتخويل من الغير » وهى بهذا تشبه لقب « البكالوريوس » وترادفه .

والأزهر — على مانعلم — هو أقدم هذه الجامعات الاسلامية ، وإن كان بعض الباحثين الغربيين يغمطون فضله ويقدمون عليه غيره من المدارس والجامعات التى نشأت فى طول البلاد الاسلامية وعرضها .

ومن هؤلاء ، المستشرق الفرد جيوم Aefred Juillaume فقد ورد فى كتاب تراث الاسلام قوله : « ولعل فى وسعنا الان أن نقول كلمة فى نشأة الجامعة الاسلامية . فأولاها هى المدرسة النظامية المعروفة فى بغداد ، وقد قام بتأسيسها نظام الملك صديق عمر الخيام ووزير السطان السلجوقى « ألب أرسلان » سنة سبع وخمسين وأربعمائة للهجرة أى فى العام السابق للفتح النورماندى لانجلترا . ثم قامت بعد ذلك بقليل جامعات

أخرى فى نيسابور ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والأسكندرية وغيرها من البلدان وكثيرا ما قامت فى مدن اشتهرت بالعلم قبل قيام الاسلام (١) ...

وهذا القول واضح البطلان لأن الجامع الأزهر كما هو معروف مشهور أنشأه جوهر الصقلى قائد جند أبى تميم معد بعد عام من فتح الفاطميين لمصر أى عام ٣٦١هـ . وسرعان مانشأت صفته الجامعية أيام العزيز بالله الذى كان أول من أقام الدرس فى الجامع الأزهر بعلوم ، ومعنى هذا أن الأزهر قد أصبح مدرسة جامعة قبل إنشاء المدرسة النظامية وقبل فتح النورماندين لانجلترا بقرن من الزمان ، وليس هذا فى حساب التحقيق العلمى بالقليل !..

والأزهر يلخص تاريخ الحضارة الاسلامية كلها فى ألف سنة ، ازدهر بازدهارها وانكمش بانكماشها ، ذلك أنه لم يكن جامعة وطنية بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، بل كان جامعة العالم الاسلامى بأسره يؤمه طلاب العلم من أواسط أفريقية إلى الروسيا ومن أقاصى الهند إلى مراكش بل أصبح على الأيام أهم الجامعات الاسلامية وأخطرها شأنا بعد أن خرج العرب من الأندلس وأتت غارات المغل على المدارس والمعاهد الاسلامية خارج مصر ولأنه يقوم فى مكان يتوسط العالم الاسلامى غير بعيد من الحرمين الشريفين .

---

(١) تراث الاسلام .. الترجمة العربية ص ٢٢٩

وقد نشأت الجامعة الأزهرية أيام كان الدين قوام الحياة العقلية كلها ، وهو من هذه الناحية يشبه سائر الجامعات فى الشرق والغرب إبان القرون الوسطى ، بل إن أشهر الجامعات الأوربية فى أيامنا هذه ، لاتزال تحتفظ بتقاليد ورسوم تدل على أصلها الدينى .

* * *

مهدت الجامعات الاسلامية لعصر إحياء العلوم فى أوربا وكانت من أكبر الأسباب على قيام النهضة التى ترتكز الحضارة الغربية على أسسها الفلسفية إلى اليوم ؛ والأزهر من أعظم هذه الجامعات الاسلامية شأنا بل هو أقدمها وأبقاها ، فقد كان الدرع الواقية للحضارة الاسلامية ، أيام قام المتعصبون من النصارى يريدون انتقاص هذه الحضارة من أطرافها ؛ وكان موئل العربية عندما هبت الشعوبية الغاشمة تحاول أن تقوض أركان الحكم العربى والسيادة العربية ، وكان رائد النهضة العربية الحديثة يقوم منها مقام الرأس واليد معا ، يمدها بالقادة والجند جميعا .

ورأت مصر فى فجر هذه النهضة أن تلائم بين حياتها وبين مقومات الحضارة الغربية الحديثة ، فقبست الكثير من النظم الأوروبية وأنشأت المعاهد حكاية عن الجامعات الأوروبية وليس فى النقل والاقتباس عيب وإنما العيب كل العيب أن نتجاوز عن الموجود القائم بتبعاته على خير الوجوه إلى غيره نخلقه خلقا وننشئه إنشاءا ، وكان الأحجى أن نطور جامعتنا الأزهرية العتيدة وأن نجعلها جامعة علمانية حديثة كالجامعات الأوروبية التى تفاخر بقدمها وتحرر البحث العلمى فيها .

وإذا كان الاصلاح الذى ننشده تجديدا لا تبديدا .. فيجب علينا أن نحافظ على تقاليد الأزهر الحسنة قبل أن نغير من معالمه و نبدل من أوضاعه . . يجب علينا أن نحافظ على هذا الشغف بالعلم من أجل العلم الذى كان يدفع بالشباب على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية الى طى البلدان وتجشم الأخطار طلبا لحقيقة من حقائق العلم أو بحثا عن شيخ من الشيوخ . . يجب علينا أن نحافظ على حرية الاختيار التى كانت سمة من أهم السمات فى الأزهر يدرس طالب العلم ما يريد على من يريد فلا نربطه بمادة أو بمجموعة من المواد ولا نلزمه بشيخ أو بعدد من الشيوخ ، وشخصية الأستاذ ورسوخ قدمه فى العلم الذى انتدب نفسه له واشتهر به هى التى تقرر مكانه وتحافظ عليه وتجتذب الطلاب والمريدين اليه .. يجب أن نحافظ على « عالمية » الأزهر نعم .. أنه يتسع اليوم لهذه المجموعة التى يتألف منها الوطن الاسلامى العام ولكنه لا يزال موصدا فى وجه غير المسلمين ، مع أن الدين الاسلامى أكثر الأديان تسامحا وأرحبها صدرا ، فى كنفه عاش فلاسفة اليهود وحكماء النصارى وبعض الصابئة من أصحاب النجوم . . يجب أن نحافظ على أن طالب العلم حسبه أن يطلبه فلا تأخذ منه أجرا أو شبه أجر .

وكل إصلاح للأزهر لا يتناول الأسس الفلسفية التى يقوم عليها ، إصلاح ناقص لا جدوى له ولا غناء فيه ، وقد انصبت جميع المحاولات على العرض دون الجوهر فغيرت من مبانيه وقاعاته ورسمت الحدود والمناهج وحاولت أن تستحدث له صفة العصرية فأضافت بعض المواد واللغات

إلى مايدرس فيه ، ولكن الأزهر الذى ساعد مع غيره من الجامعات الاسلامية على قيام النهضة الأوروبية ظل للأسف الشديد جامعة لما تتحرر بعد من أسار القرون الوسطى .

وأول ما ينبغى أن ينبه إليه أجرياء المصلحين ، أن الأزهر كان جامعه دينية أيام غلب الدين على مظاهر الحياة جميعا وأيام كانت العلوم كلها وسيلة إلى فهم هذا الدين بل وأيام كان الحكم والتعامل يتفرعان عنه . وهكذا نشأت الجامعات الأوروبية الكبيرة كما أسلفنا ، ولكنها تطورت واحتفظت بأصلها الدينى فى بعض رسومها وتقاليدها وفى كلية من كلياتها خصصت لدراسة الدين ومقارنته بغيره من الأديان فى غير تحرج أو إعنات . فلما ذا بقى الأزهر دون سائر الجامعات العالمية الباقية جامدا على صورته ؟.. يريد بعض المستشرقين أن يرد ذلك الجمود إلى الاسلام وهو منه براء ، فالاسلام لايعرف « الكهنوت » وهو إذا كان قد سمح بقيام بعض الأئمة المتخصصين ، فذلك لازدحام الأمصار وتعقد الحياة فيها لا أكثر ولا أقل .

وقد كان للنهضة ثلاث مظاهر غير مندمجة : الأول يأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية من غير تعديل أو بتعديل يسير . والثانى يحافظ على مقومات الحضارة المصرية الشرقية . والثالث بين بين يحاول أن يوفق بينهما ، ونحن نجد مصداق ذلك فى مرافق الحياة جميعا وبخاصة فى القضاء والتعليم ، وقد آن الأوان لأن تندمج هذه المظاهر فنحافظ على الصالح من تقاليدنا ونأخذ بما يوافق استعداداتنا ونجعل منهما حضارة موحدة . والمعهد الذى يستطيع أن يقوم بهذا كله هو الأزهر دون سواه .

وجيل الأزهريين الذى أرسل إلى أوروبا أعظم من غير شك من الأجيال التى أتت بعده، وأفهم للروح المصرية العربية واحتياجاتها. وإذا كنا قد أخطأنا فلم نطور الأزهر ونجعله الجامعة المصرية العربية المنشودة، فيجب ألا نغفل عن ذلك الان حتى يصبح الأزهر جامعة القاهرة الأولى يدرس فيه الطب وسائر العلوم الطبيعية إلى جانب أصول الدين والفقه والكلام.

وثانى ماينبغى أن ينبه إليه أجرياء المصلحين، هو أن هذه الصفة الدينيه للأزهر جعلته سلفيا، فليست غاية الدرس فيه البحث والتحقيق، والموازنة والاختبار، وإنما غايته نقل ما تركه السلف فى أمانة وإخلاص والدارسون يتوجهون إلى الماضى لا إلى الحاضر والمستقبل ويفترضون أن الزمن آخذ فى الفساد وأن كل جيل يقل عن سابقه، فالعصر الذهبي هو عصر النبوة، يليه عصر الصحابة فعصر التابعين وهكذا، ومن ثم وهنت صلة الأزهر بالحاضر وقلت ثقته بالمستقبل فينبغى أضعاف هذه السلفية، ولا نقول القضاء عليها لأنها مفيده اذا كانت بقدر وأن تحل محلها النظرة المقابلة لها التى تذهب إلى أن الحياة تدرج من البسيط إلى المعقد ومن الدنىء إلى ماهو أرقى منه، كما هو الشأن فى نشأة الحياة وتدرجها وارتقائها، وإذا كنا قد فقدنا عصرا ذهبيا فلعلنا إذا سايرنا موكب الحياة أن نجد فى المستقبل عصرا ذهبيا آخر.

وثالث ماينبغى أن ينبه إليه أجرياء المصلحين هو أننا يجب أن نوحد بين سبل التعليم العام، فلا نجعل هنالك صنفين من المدارس

يؤدى الأول بنظام الحلقات المتداخلة إلى الأزهر ويؤدى الثانى بهذا النظام نفسه إلى الجامعه أومايشبهها ويقوم مقامها . بل يجب أن تتوحد فرصة هذا التعليم المشترك للجميع ، كما يجب أن تتوحد نظرة الدولة إلى الأزهر وغيره من الجامعات ، فنقضى بذلك على العصبية المعهدية الفاشية بيننا ونسوى بين أصحاب المؤهلات الدراسية المتماثلة ونقضى على المعاهد الملفقة التى لم يعد لقيامها من ضرورة أو سبب .

* * *

وبعد فهذا كتاب عن الأزهر ونشأته وتقاليده ونهضته قام به صديق الأستاذ عثمان توفيق لمناسبة مرور ألف سنة على نشأة القاهرة المعزيه والأزهر ، وقد عاونته فيه بأن قدمت إليه بعض المصادر ، وراجعت بعض الفصول ، وإن شرفنى فوضع اسمى عليه إلى جانب اسمه مع أن جهدى فيه أقل من القليل .

ولعلك بعد ان تفرغ من قراءة هذا الكتاب ، تقتنع معى بأن الجامعة الأزهرية التى قامت منذ ألف سنة والتى قبست منها الجامعات الأوروبية نظمها وتقاليدها والتى حافظت على تراث الرومان واليونان والفرس والعرب ، جديرة بأن تستعيد مكانتها العالمية بين الجامعات التى نشأت بعدها وعلى غرارها والتى لم تقم فى خدمة العلم والحضارة بما قامت به جامعتنا الأزهرية التليدة ؟

المؤلفان

القاهرة فى ٢٩ يوليه ١٩٤٦

نشأة الأزهر

العلويون هم نسل على بن أبي طالب من فاطمة البتول ابنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانوا ومازالوا يعتقدون أن الخلفاء الراشدين والخلفاء من دولتي أمية والعباس ، نالوا أمر الخلافة من على ومن بيت النبي اغتصابا وإنهم أى العلويين ، لهم الحق المقدس فيها .

والفاطميون أولاد عبد الله المهدى يدعون كذلك أنهم من أولاد فاطمة بنت رسول الله فهم علويون أيضاً . وقد كانت دعواهم تلك محل أخذ ورد من الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين ، فبعضهم ناقض هذا النسب وأثبت عدم صحته والبعض الآخر حاول إقراره وإثباته .

فيقول ناقضوه إن عبد الله المهدى ينتسب إلى ميمون بن ديصان البونى وإليه تنتسب الثنوية الذين يعتقدون بوجود إلهين إله النور وإله الظلمة . ويقال إن عبد الله بن ميمون مؤسس مذهب القرامطة جد الخلفاء الفاطميين ، فقد كان زعيم حزب صغير عند ظهوره أخذ يعظم

حتى أصبح هذا الحزب أسرة حاكمة امتدت فتوحها شرقا وغربا حتى وصلت إلى أرض الفرات .

وكان عبد الله بن ميمون هذا ، رجلا يدعى الزهد والعلم والتقشف عالما بجميع السنن والمذاهب . وقد رتب سبع دعوات يتدرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها فيصير إباحيا لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، وصار له دعاه فأخذ ينشر بين الناس دعوته فاستطاع بذلك أن يجمع حوله الأنصار والمريدين . ثم طلب من أنصاره أن يدفعوا قدراً من المال ضريبة تعينه على نشر مبادئه . فوصل إلى الوالى نبأه فحاول القبض عليه ، فهرب من فارس إلى البصرة ، ثم رحل إلى الشام حيث مات هناك ، فخلفه ابنه أحمد فى نشر الدعوة إلى أن وافته المنية ، فخلفه ابنه الحسين ثم أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع وهو الذى أرسل إلى المغرب عبد الله الشيعى وأخاه العباس لنشر الدعوة هناك . ومات الحسين عن ولد اسمه سعيد صار تحت حجر عمه . اشتهر بكثرة ماله وأنصاره ببلدة سلمية بالشام . فطلبه الخليفة العاضد فهرب إلى مصر يريد بلاد المغرب فحبسه عيسى البوشرى أمير سجلماسة فأنقذه عبدالله الشيعى وصحبه إلى رفاده حيث سمى بالمهدى وتلقب بأمير المؤمنين وانتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وذكر فى خطبة الجمعة وبث العمال وضرب السكة باسمه . وكان يلبس الخشن من الثياب ويأكل الغليظ من الطعام .

وقيل إن أصله من المجوس ، بل ذهب بعضهم إلى أن سعيداً هذا

كان ابن حداد يهودى مجهول تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون ، فتبنى سعيداً وأدبه وعلمه أسرار مذهب الإسماعيلية ، فلما وافته منيته ، وكان من غير ولد ، أوصى أنصاره بطاعة سعيد بعد أن زوجه ابنة عمه أبى الشلعلع ، فتسمى سعيد باسم عبد الله المهدى .

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من علماء مصر طعنوا فى نسب المعز إلى على بن أبى طالب . واجتمع المعز يوما ببعض الأشراف والعلماء فسأله ابن طباطبا « إلى من ينتسب مولانا ؟ » فسل المعز سيفه وقال : « هذا نسبى » ثم غمرهم بالذهب وقال : « هذا حسبى » ومن هذا التاريخ يقال : « سيف المعز وذهبه » للإشارة إلى بطلان الشىء .

أما المؤرخون الذين يؤكدون نسبة الفاطميين إلى على بن أبى طالب ، فيقولون إن سعيداً بن أحمد بن عبد الله المهدى هو ابن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . وإن أولاد على بن أبى طالب كانوا من كثرة العدد وجليل القدر بحيث لا يستطاع أن يدعى لابن يهودى ويهمل أولاد على ، وأن كل طعن صدر فى صحة نسب الفاطميين إلى على وزوجه فاطمة ، ماهى إلا طعون موضوعة مغرضة صادرة من فريق من الناس غصوا بمكان الفاطميين . وقد اتصلت دولتهم نحو ١٧٠ سنة ملكوا من العباسيين المغرب ومصر والشام والحرمين واليمن ، وألفوا وكتبوا متأثرين بسلطان العباسيين أو مجارين أعداء الأسرة الفاطمية ، عسى أن يحط ذلك من شأنهم فى أعين رعاياهم بعد

أن عجزت عساكر بنى العباس وأمراءهم عن مقاومتهم فأشاعوا ذلك كى يدفعوا به عن أنفسهم معرة الهزيمة وفقدانهم مصر والشام والحرمين. نضرب لذلك مثلا القول المأثور «سيف المعز وذهبه» فقد ثبت قطعاً أن وصول المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ كان بعد وفاة ابن طباطبا بأربع عشرة سنة.

ويقول ابن الأثير، إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب فلم يرتابوا فى صحته.

ويقال إن طائفة من بلاط الإخشيد قدمت للمهدى كل ما استطاعت من معونة لا لشىء سوى أنه من أولاد على.

وقد لقى الفاطميون فى أول عهدهم بنشر مبادئهم كثيراً من الاضطهاد من خلفاء بنى العباس الطاعنين فى هذا النسب والخائفين من أبناء على. فصار الشيعة ما بين طريد شريد وبين خائف يترقب. فكثرت حوادث القبض عليهم والتنكيل بهم، فلاذوا بالاختفاء حتى كثر مريدوهم، وانتشرت دعوتهم وقويت شوكتهم، فاستتب لهم الأمر فى بلاد المغرب لبعدها عن مقر الخلافة العباسية فى بغداد ولقيام البربر فى المغرب بثورة على الأسرة الحاكمة فيها. وساعد على ذلك قتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه العباس وكان لهما نفوذ كبير منافس فأصبح المهدى الحاكم المطلق.

ولما مات عبد الله ولى بعده ابنه القاسم، فاتسع نفوذ الفاطميين فى عهده وملكوا القيروان. ثم ولى المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل

وقام من بعده ابنـه (المعز لدين الله أبو تميم معد) وكان عمره أربع وعشرين سنة . فقد ولد للنصف من رمضان عام ٣١٧ هـ ، فانقاد إليه البربر وأحسن إليهم فعظم أمره .

واختص المعز لدين الله من مواليه جوهر الصقلى وكناه بأبى الحسن. وأعلى قدره وأسند إليه رتبة الوزارة وعقد له على جيش كثيف لأخذ مصر وفتحها . وكانت ذات أهمية قصوى لدى الفاطميين الذين رأوا أملهم فى إقامة دولة علوية فى آسيا قد ابتدأ ينهار من أساسه ، نظراً لما لاقته الدعوة فى الشام وما جاورها من البلدان من عظيم المناهضة وما عاناه القائمون بها على يد العباسيين من قتل وسجن وتشريد . ولم تـكن القيروان ولا المهدية من المدن الصالحة لأن تـكون حاضرة لإمبراطورية فاطمية عظيمة . وكان لـكثرة ما قام به الفاطميون فى مصر لأنفسهم ولمبادئهم من الدعاية أثر كبير فى تيسير فتحها . حتى قيل إن المصريين وعدوا الفاطميين بمساعدتهم عند الفتح .

* * *

ولد جوهر الصقلى بجزيرة صقلية وكانت من أعمال الدولة الرومانية . وظلت كذلك حتى فتحها الأغالبة سكان شمال إفريقيا على يد أسد بن الفرات فى عصر الخليفة المـأمون ، فاعتنق أهل الجزيرة الإسلام إثر الفتح . وكثرت المساجد فى الجزيرة ، وأربت على الثلثمائة ، وكانت سبباً فى انتشار اللغة العربية حتى أصبحت اللغة الرسمية بل لغة التخاطب .

ولما ولد جوهر سنة ٣٠٠ هـ ، كان الإسلام قد انتشر إنتشارا عظيما فى ربوع الجزيرة ، فنشأ جوهر فى بيئة إسلامية خالصة وثقف ثقافة عالية بفضل انتشار اللغتين العربيـة واللاتينية وأخذ بنصيب من الحضارتين العربية والرومانية .

ولم يعرف عن جوهر إلا أنه كان مولى من موالى المعز ، ولم يذكر التاريخ شيئا هاماً عن والديه ولا بيته ولا البيئة التى نشأ فيها . وكل الذى ذكره أن أباه كان يعرف باسم عبدالله وأنه حضر فتح الأغالبة لجزيرته ، فأجداده إذن لم يكونوا مسلمين .

وقد اختص المعز جوهراً وقربه إليه لإخلاصه له وتبحره فى الدين ومقدرته الحربية الفائقة . وتدرج جوهر فى المناصب ببلاد المغرب فولى منصب كاتب الخليفة عام ٣٤١ هـ ، ثم ارتقى لمنصب الوزارة عام ٣٤٧ هـ ، ثم بعثه المعز فى نفس العام لفتح ما بقى من بلاد المغرب ففتح مدنها حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى بعد أن قبض على صاحبى فاس وسجلماسة ووضعهما فى قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو فى المهدية . وبذلك توطد الأمن فى جميع بلاد المغرب فى أقل من سنة . فاختاره المعز لقيادة الحملة التى كان يزمع إرسالها لفتح مصر ولقبه (بالقائد) بعد أن أيقن مما وقف عليه من رسله ودعاته أنه لن يلقى فى فتحها مشقة كبيرة ذلك أن الدولة الفاطمية فى ذلك الحين كانت قد بلغت أوجها من القوة والفتوة .

خرج جوهر فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى عام ٣٥٨ هـ

(فبراير عام ٩٦٩ م) على رأس جيش يربو على مائة ألف بخلاف الخيل. وسرعان ما وصل إلى برقة ثم إلى الاسكندرية التى دخلها بدون عناء وأمن أهلها. وأدى دخوله الأسكندرية إلى اضطراب أهل الفسطاط، فانتدبوا أباجعفر مسلم وهو شريف علوى فى طلب الصلح مع جوهر. فقبل جوهر الصلح وفيه تعهد بحماية مصر من المغيرين وقطاع الطرق مع ترك الحرية العامة للمصريين فى إقامة شعائرهم الدينية وتعهد باصلاح الجوامع والسكة ومنع غشها .

سار جوهر بعد ذلك إلى الجيزة ثم إلى مدينة مصر فالفسطاط واحتلها بعد غروب شمس يوم ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ (١٧ يوليو عام ٩٦٩ م) وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها .

وخط جوهر فى الليلة نفسها مدينة القاهرة لتكون مقراً لملك الفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، ثم وضع أساس القصر الكبير داخل سور القاهرة . وقد أمره المعز ببنائه ووضع له رسمه . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر بالقاهرة .

وقد عرفت مصر قبل إنشاء مدينة القاهرة ثلاث مدن إسلامية هامة . كانت أولاها مدينة الفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص عقب فتحه مصر عام ٢١ هـ (٦٤١ م) والثانية مدينة العسكر التى أنشأها الجنود العباسيون عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) بالقرب من مدينة الفسطاط عقب القضاء على آخر خليفة أموى فى مصر . والثالثة مدينة القطائع

التى بناها أحمد بن طولون رأس الأسرة الطولونية عام ١٥٦ ﻫ (٨٧٠م) لتكون حاضرة مملكته الجديدة .

فكان فى مصر أثناء الفتح الفاطمى ثلاث مساجد هى : جامع عمرو بمدينة الفسطاط مركز الحركة التجارية حيث يزدحم السكان وجامع ابن طولون فى القطائع وجامع العسكر . ثم أنشىء الجامع الأزهر . ولم يكن الغرض من إنشاءه أول الأمر الصلاة فقط ، بل كان هناك ماهو أقوى وأهم ، وهو نشر المذهب الشيعى وإذاعة الأخبار وأغراض سياسية أخرى هامة .

وخطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨ (٩٩٦ م) بدل الخليفة العباسى ، وبعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة . ويعتبر ذلك حادثا هاما فى تاريخ مصر . ثم زيد بعد ذلك فى الخطبة (اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين) .

وفى رمضان عام ٣٥٩ ﻫ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد كان الأذان بجامع ابن طولون إلى قبيل الفتح الفاطمى لمصر كأذان أهل المدينة وهو (الله أكبر ، الله أكبر) حتى صلى جوهر بالجامع فأذن المؤذنون (حى على خير العمل) وهى العبارات المألوفة

عند الشيعة . وانتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع العسكر ومنه إلى جامع عمرو بعد ذلك ، واستخدمت هذه المساجد بعد ذلك لتعليم اللغة العربية وأصول الدين .

***

ما كاد جوهر يضع أساس القاهرة إذن، حتى شرع بعد تسعة شهور بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمى ، ويصبغ المصريين بصبغتهم ديناوسياسة ، ولتربية النشء على الولاء لهم وتقديس مبادئهم .

وقد شرع فى بناء الأزهر فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة فى اليوم السابع أو التاسع من رمضان عام ٣٦١ هـ . واختير لبنائه مكان فى الجنوب الشرقى من القاهرة بالقرب من القصر الكبير بين حى الديلم وحى الترك .

وسمى **الأزهر** لأنه كان محاطا بقصور زاهرة ، ولأنه كان أكبر الجوامع على الإطلاق فخامة ورواء ، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه سمى باسم فاطمة الزهراء التى ينتسب إليها الفاطميون ، ويقال إنه سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه .

والأزهر أول مسجد أنشىء بالقاهرة . وعند ما أنشأه جوهر ترك أمامه رحبة واسعة تبتدىء من خط الطارمة إلى الموضع الذى كان فيه مقعد الأكفانيين ، أى تقريباً من السكة الجديدة إلى التبليطة . وعرضها من باب الجامع البحرى إلى الخراطين ، أى الصنادقية ولم يكن

بين هـذه الرحبة ورحبة قصر الشوك إلا إسطبل الطارمة فكان الخلفاء حين يصلون بالناس بالجامع الأزهر ، تدخل العساكر كلها وتقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفة إلى الجامع . وبقيت هذه الرحبة إلى وقت الدولة الأيوبية . ثم شرع الناس بالعمارة فيها حتى لم يبق لها أثر . وكان الأزهر كسائر الجوامع الإسلامية فى العصر الذى بنى فيه يشتمل على محل مسقوف للصلاة يسمى مقصورة وآخر غير مسقوف يسمى صحنا .

ويروى أنه كان بالبناء الأول للجامع طلسم ، وهى صورة طيور منقوشة على رأس ثلاثة أعمدة حتى لايسكنه ولا يفرخ به عصفور أو حمام أو يمام . وقد نقشت كل صورة على رأس عمود ، منها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس وأخرى فى الجهة الغربية وثالثة فى آخر العمودين على يسار من استقبل سدة المؤذنين .

ولم يعثر إلى الآن على أى مصدر يفهم منه ما كان عليه الجامع عند إنشائه وكيف صمم أو كيف بنى . وقيل إنه كان مكونا من رواق ذى خمس بلاطات ، تسير من الشمال إلى الجنوب ، وكان على الجانبين يمينا وشمالا ، رواق من ثلاث بلاطات . أما فى الجهة المقابلة لحائط المحراب، فكانت بالرواق بلاطة واحدة ،وتتوسط رواق القبلة بلاطة رئيسية تسير من الصحن إلى القبلة ، وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وأقيمت قبة الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على يمنة المحراب والمنبر وكان إنشاء البلاطة الرئيسية والقبة على يمنة المحراب والمنبر من

خصائص العمارة الفاطمية . ولم يكن للجامع ميضأة عند ما بنى . وباب الجامع البحرى الذى كان يدخل منه الخليفة موجود إلى الآن غير أنه مسدود ، ويقال إنه كانت فى محراب الجامع منطقة من الفضة تزن ٥٠٠٠ درهم أخذها صلاح الدين الأيوبى عام ٥٩٦ هـ .

وكتب جوهر بدائرة القبة نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ « بما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آباءه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » وقد اختفى هذا النقش .

وكان الفاطميون قد رأوا أنه من الحزم عدم أخذ أهل مصر السنيين على غرة فى المساجد فى مبدأ حكمهم ، بإضافتهم إلى الخطبة عبارة (السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله) ، ولكن بمرور الوقت تطورت الدعوة الفاطمية تطورا عظيما ، فنقش على جدار الأزهر بأمر الخليفة عبارة « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب » .

ويقول المقريزى إن المعز والعزيز كانا يقيمان الخطبة فى الأزهر إلى أن فتح مسجد الحاكم عام ٣٨٠ هـ . ثم انتظمت الخطبة فى مساجد عمرو وابن طولون .

وقد زين الأزهر ومناراته فى عهد المعز بالأنوار الساطعة ، مما جعله يبنى منظرة فى قصره ليشاهد هذه الزينات ليلا ، فسميت منظرة الجامع الأزهر . وكان الخليفة يجلس فى هذه المنظرة ليالى الوقود ، وهى ليلة

مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه .

ففى كل يوم من هذه الأيام الأربعة يسير قاضى القضاة ومعه الشهود والمؤذنون والقراء ، وقد أوقدت بين يديه الشموع ، من دار القضاء إلى دار الخلافة . ثم يدخل مع صاحب الباب وحاكم القاهرة تحت منظرة الخليفة ويقومون بالخطابة إلى أن يسلم عليهم من الطاقة أستاذ دار الخلافة فينصرفون إلى دار الوزارة لتحية الوزير ، ثم يزورون الجامع الأزهر وجامع عمرو وجامع العسكر وجامع الفسطاط ، وقد أنيرت جميعها بالشموع والقناديل ، حيث يصلى فى كل جامع ركعتين لصاحبه ، ثم تقدم للناس الحلوى والأطعمة وترسل البخور فى مجامر الذهب والفضة . وقد كانت هذه الليالى من أبهج الليالى وأحسنها .

وكان من رسوم الجوامع والمساجد أن يتولى قاضى القضاة أحباسها وإليه أمرها ، وكان لها ديوان مفرد . وبلغت أحباسها عام ٣٦٣ ﻫ ألف ألف درهم وخمسة آلاف درهم . وكان مرتب كل مشهد خمسين درهما شهريا . وجرت عادة القضاة قبل رمضان أن يمروا على المساجد والجوامع ليتفقدوا أحوالها .

ويقول المقريزى إن أول مادرس فى الأزهر من العلوم ، هو الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، ففى صفر عام ٣٦٥ ﻫ جلس قاضى مصر أبو الحسن على بن النعمان بن محمد بن حتون بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت (فقه الشيعة) ويعرف هذا المختصر (بالاقتصار) وقد حضر هذا الدرس عدد عظيم من الناس . وأثبت أسماء الحاضرين .

ويعد الخليفة العزيز الفاطمى أول من أوقف الجامع الأزهر على العلم ، وأول من أقام الدرس به عام ٣٧٨ هـ . فتحول بذلك من جامع إلى جامعة . إذ ما كاد يتولى الخلافة حتى قام ومعه وزيره أبو الفرج يعقوب بن كلس — وكان من فحول العلماء ، يدين باليهودية ثم اعتنق الدين الإسلامى — بتعيين خمسة وثلاثين عالما شيعيا إسماعيليا لتدريس الفقه على مذهب الفاطميين ودراسة الأدب وعقائد الدين بالأزهر ، وأسماهم المجاورين ، إذ ابتنى لهم المنازل المجاورة للجامع وأسكنهم فيها ، وأجرى عليهم الأرزاق والخلع ومنحهم العطايا والهدايا وقد ضمت منازلهم بعد ذلك إلى أروقة الأزهر .

ورغب الفاطميون فى جعل المسجد من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية . فقدموا إليهم المأكل والمشرب والمسكن والملبس من غير أجر .

وذكر لنا المقريزى وصفا خلابا لصلاة الجمعة ، كما كان يقيمها الخلفاء الفاطميون فى الجامع الأزهر فى شهر رمضان . فكان صاحب بيت المال يذهب مبكرا إلى الأزهر ليشرف بنفسه على تنظيفه وتنظيمه وإعداده لصلاة الجمعة للخليفة ، فيفرش الحرم بالسجادات اللطيفة والحصر ، ثم تغلق أبواب المسجد ويجعل عليها الحجاب والبوابون . وكانت توضع فى المقصورة ثلاث طنافس دمقسية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض ، وتوضع فوق الجميع الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩م) فى عهد الحاكم

بأمر الله ، وكان ينصب على جانبي المنبر ستران أحمران رقيقان كتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين ، ويقوم قاضى القضاة قبل قدوم الخليفة بتبخير القبة التى يقف تحتها الخليفة وقت إلقاء الخطبة ، وكان يضعها أحد كتاب البلاط . وكان الخليفة فى هذا اليوم يرتدى ثوبا من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الدقيق كذلك ، ويحمل فى يده قضيب الملك ويحف به عدد كبير من الأشراف والعلماء والعسس وحرسه الخاص .

وذكر أبو المحاسن أن الخليفة الآمر كانت تحف به الفيلة والأسود المزينة بالكسى الفاخرة والأسلحة اللامعة ، ويقال على الرغم من شغف الحاكم بأمر الله الشديد بأن تكون مواكبه فى غاية الأبهة ، فقد كان ينيب وزيره عنه فى صلاة الجمعة لأنه كان يرتج عليه فى الخطبة .

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجية ، بعد أن يسلم لكل واحد من مقدمى الركاب أكياس الذهب والفضة . ويستمر الحال كذلك إلى أن يصل الخليفة إلى قاعة الخطابة ويظل فى القاعة حتى ينتهى الأذان . حينئذ يخرج ويأخذ مكانه تحت قبة المنبر ، فيقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ، فإذا أومأ إليه صعد فقبل يدى مولاه ورجليه وزر سترى الحرير عليه ، وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج ، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر ، فإذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فإن قاضى القضاة

هو الذى يزر الستربن . وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة قصيرة تشتمل على آية من القرآن . ثم يذكر الخليفة نفسه بعد الآية ، ثم قومه بعبارة موجزة فيقول (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل عملا صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ويدعو بعد ذلك لوالده وجده ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلى رضى الله عنه . ثم يختم الخليفة الخطبة بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين فإذا فرغ من خطبته قال « اذكروا الله يذكركم » ثم يصعد الوزير فيحل الستربن ، ثم يأخذ الخليفة فى الصلاة ، فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون ، فإذا ما انتهت الصلاة ، يخلو الجامع من الناس ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة عن يساره ويعود بموكبه إلى قصره .

وقد كانت الخطابة فى عصور الأزهر الأولى من مهام الخليفة فنجد المعز لدين الله يلقى الخطبة بنفسه مكتسبا صفة الإمامة متخليا بعض الشىء عن صفة الخلافة ، بل نجده فى كثير من الأحيان وأثناء قيامه بواجباته الدينية حريصا على إمامته ضنينا من أن يؤديها غيره ، بل نراه يحاول أن يتشبه بالنبى ، والخلفاء الراشدين الذين كانوا يقومون بأنفسهم بإلقاء خطبة الجمعة فى الجامع . ومما ساعده على ذلك ما كان عليه المعز من صفات الخطباء ، فقد كان مفوها فصيحا ذا تأثير سريع قوى فى سامعيه ، وكثيراً ماذهب بالناس إلى حد البكاء بقوة وعظه وعظم بلاغته .

وحذا حذو المعز كثير من الخلفاء الفاطميين ، فكانوا يلقون الخطبة بأنفسهم ، ولكن الحال تغير فى العصور المتأخرة ، أيام الخلفاء الضعاف والمستترين خاصة ، فأصبح للجامع الأزهر خطيب خاص به يلقى الخطبة بين يدى الخليفة فى أيام الجمع والموالد التى كانت تحتفل بها مصر فى كل عام ، وهى المولد النبوى ومولد على بن أبى طالب ومولد زوجه فاطمة الزهراء ومولد ولديها الحسن والحسين ، ثم مولد الخليفة القائم . ولم يقتصر خطيب الأزهر على ذلك ، بل كان يخطب فى ليالى الوقود الأربعة متقدما على خطباء المساجد الأخرى .

وكانت وظيفة خطيب الجامع الأزهر تعد من الوظائف الدقيقة التى يحاول أن يرتفع إليها كثير ممن يتولون مناصب الدولة الكبيرة . فقد ذكر ابن ميسر أن وظيفة الخطابة بالجامع الأزهر قد أسندت عام ٥١٧ هـ إلى داعى الدعاة أبى الفخر صالح ...

عمارة الأزهر

ومع أن الأزهر مازال يحتل المكان الذى أقيم عليه منذ ألف عام فقد تعاقبت الزيادات على البناء الأصلى وزاد ما أوقف عليه من عقار ورباع فتحول الأزهر من مسجد صغير إلى جامع كبير ومركز عظيم للعلم ، فأصبح يحتل مساحة تقرب من ١٢٠٠ متر مربع ، وبلغ عدد أعمدته ٢٧٥ عموداً وقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون المتعاقبه عليه كما أضيفت إليه زيادات عده . وإذا كان الجامع مازال يشتمل على بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن معظم أجزائه الموجودة الآن من عصر متأخر .

وأول من زاد فى بنائه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، فقد جدده وأوقف عليه رباعا بمصر وضمن ذلك كتابا بأن الوقف لمصلحة الجامع وبقاء العين ومرمته بما حبس عليه وقضى فى وقفيته على توزيع مبالغ سنوية للخطيب وشراء حصر مضفورة لكسوة الجامع وبخور وكافور ومسك لشهر رمضان وأيام الجمعة ، كما خصص مبالغ أخرى لكنس الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وشراء الخيط وأجرة الخياطة

والسقاء وثمن الحبال والقواديس وعشرين قنديلا من الفضة شرط أن تعلق فى شهر رمضان فقط ثم تعاد إلى مكان خاص جرت العادة أن تحفظ فيه .

كما اهتم بالجامع الخليفة العزيز بالله بن المعز فقد جدد فيه أشياء كثيرة ونواحى متعددة وبنى حوله الكثير من الدور والمنازل وأوقف عليه بعض الأوقاف .

وقام المستنصر بالله معد بن الطاهر لاعزاز دين الله بتجديده مدة حكمه . وسار على خطته حفيده المنصور أبو على الآمر بأحكام الله ، فوضع على يده عام ٥١٩ ﻫ (١١٢٥ م) محرابا من الخشب عليه لوح خشبي كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر سيدنا المنصور أبو على الإمام الآمر بأحكام الله » وهذا اللوح موجود الآن بدار الآثار العربية .

وفى عام ٥٢٤ ﻫ (١٢٣٠ م) جدد أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد بعض أبنية الأزهر وأنشأ فيه مقصورة جميلة عرفت بمقصورة (فاطمة) لأنه قيل إن فاطمة الزهراء رضى الله عنها رؤيت بها فى المنام ، وكانت تلك المقصورة بجانب الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات .

ولكن الحال تغير فى عهد الأيوبيين أهل السنة ، فحاولوا محو كل أثر للفاطميين، فأمر صلاح الدين الأيوبى بمنع الخطبة فى الجامع الأزهر

وقطع الكثير مما أوقفه عليه الحاكم بأمر الله ، ويذكر لنا المقريزى أن صلاح الدين يوسف بن أيوب قلد وظيفة القضاء للقاضى صدر الدين ابن عبد الملك بن درياس الشافعى فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع إقامة الخطبتين فى بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعى ، فأبطل الخطبة والتدريس فى الجامع الأزهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى بحجة أنه أوسع . فأهمل الأزهر منذ ذلك التاريخ ، وامتدت يد المغتصبين إلى معظم أوقافه ، وأخذت جدرانه وأركانه فى التداعى . ثم أعيد إلى الجامع الدرس . وأول مادرس به من مذاهب أهل السنة مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ثم أدخلت إليه المذاهب الأخرى تباعاً .

وانقضى نحو قرن من الزمان قبل أن يستعيد الجامع الأزهر عطف الولاة ووجوه البلاد عليه ، فلما تولى الملك الظاهر سلطنة مصر تحدث فى مسألة إعادة الخطبة إلى الجامع الأزهر . ولكن قاضى القضاة ابن ثبت العز الشافعى امتنع عن إعادتها فعزله السلطان وولى مكانه قاضيا حنفيا فأعيدت الخطبة عام ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ — ١٢٦٧ م) .

وزاد بيبرس فى بناء الجامع وشجع العلم والتعليم فيه ، كما حذا حذوه كثير من أمرائه أشهرهم الأمير عز الدين أيدمر الحلى الذى أقام احتفالا رسميا عظيما فى الجامع الأزهر ابتهاجا بعودة الخطبة إليه ، كما أقام احتفالا فاخراً فى داره حضره رجال الدولة والأمراء والكبراء . وكان هذا الأمير يجاور الأزهر بسكناه ، فلمس ما وصل إليه حاله من التأخر والاضمحلال فعزم على إصلاحه ، فانتزع له ما اغتصب مما أوقف عليه

وتبرع له بمبلغ كبير من ماله الخاص وجمع له من الأمراء الكثير من المال بجانب ما أطلق من يد السلطان وشرع فى عمارته ، فأعاد بناء الواهى من أركانه وجدرانه وسقوفه وبلطه وفرشه بالحصر وكساه فعاد إلى عظمته الأولى كما استجد به مقصورة حسنة الصنع .

ومنذ ذلك العهد إلى الجامع ما كان له من صيت داوى وأصبح معهداً عليا يؤمه الناس من كل فج بعد أن لقى الأزهر من عناية البلاد الشىء الكثير ، وزاد فى مجده أن غزوات المغول فى الشرق قضت على معاهد العلم فيه ، وأن الإسلام أصابه فى المغرب من التفكك والانحلال ما أدى إلى دمار مدارسه الزاهرة .

وفى عام ٨٠٢ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م) خرب مصر زلزال عنيف فسقطت معظم جوامع مصر ومن ضمنها الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع عمرو . فسارع أمراء الدولة إلى تجديدها ، فكان الأزهر من نصيب الأمير سيف الدين سلار (من رجال دولة المماليك البحرية) وكان ثريا ، فجدد مبانيه وأعاد ما تهدم منها .

وفى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ — ١٣١٠ م) انتهى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى (نقيب الجيوش) من إنشاء مدرسة الطيبرسية (دار الكتب الأزهرية الآن) وجعلها مسجداً وقرر بها درساً الفقهاء الشافعية وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها وجميعه على أشكال المحاريب وفرشها ببسط منقوشة بشكل المحاريب كذلك وجعل فى المدرسة خزانة كتب .

ثم جددت عمارة الجامع فى عام ٧٢٥ ﻫ (١٣٢٥م) على يد محتسب القاهرة القاضى نجم الدين محمد بن حسن الأسعردى (من أسعرد بأرمينية).

كما بنى آقبغا عبدالواحد المدرسه الآقبغاوية عام ٧٤٠ ﻫ (١٣٤٠م) وقد ألحقت هذه المدرسة وكذا المدرسة الطيبرسية فيما بعد بالأزهر ومازالتا جزءا منه إلى الان.

وفى عام ٧٦١ ﻫ جددت عمارة الأزهر ، عندما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى بجوار الأزهر وبنى داراً كانت تعرف وقت ذاك بدار بشير الجامدار ، فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثراً صالحا فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع وكان مقربا إليه فأذن له ، وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضعت فيه الكثير من الصناديق والخزائن حتى ضيقته على سعته ، فأمر بإخراج تلك الصناديق والخزائن ونزع تلك المقاصير ، وتتبع جدرانه وسقوفه بالإصلاح حتى عادت إلى جدتها الأولى كما بيض الجامع بأكمله وبلطه ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفا وجعل له قارئا وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كل يوم . وعمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، ورتب للفقراء المجاورين طعاما يهيأ كل يوم ورتب فيه درساً للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لإلقاء الفقة فى المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافا جليلة .

وفى عام ٧٨٤هـ ولى الأمير الطواشى بهادر المقـدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الأزهر فأصدر مرسوما من السلطان الملك الظاهر برقوق بأن من مات من مجاورى الأزهر من غير وراث شرعى وترك موجوداً كان من حق مجاورى الجامع . ونقش ذلك على حجر عند الباب الـكبير البحرى .

وسقطت مناره الجامع عام ٨٠٠هـ (١٣٩٧ — ١٣٩٨م) وكانت قصيرة فأعاد بناءها فى الحال السلطان برقوق وأنفق عليها من ماله خمسة عشر ألف درهم . ثم سقطت مرة أخرى عام ٨١٧هـ (١٤١٤—١٤١٥م) لميل ظهر فيها فأقام بدلا عنها منارة من الحجر على باب الجامع البحرى بعد أن هدم هذا الباب وأعيد بناؤه بالحجر وركبت المنارة فوق عقدة وأخذ الحجر لها من مدرسة الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل وقام بالعمارة الأمير تاج الدين الشوبكى والى القاهرة ومحتسبها، ولـكن تلك المنارة لم تعمر طويلا ، فمالت بدورها وتهدمت لثالث مرة عام ٨٢٧هـ (١٤٢٣ — ١٤٢٤ م) فأعيد بناؤها.

وحوالى هذا العهد أنشأ السلطان برقوق صهريجا كبيراً للمياة وشيـد سبيلا وأقام ميضأة حيث المدرسة الآقبغاوية .

وفى عام ٨١٨هـ ولى نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضى صاحب الحجاب . وكان يسكن الجامع الأزهر منذ بنى بعض الفقراء والمجاورين الذين لايستطيعون السكن فى الخارج لشدة فقرهم وجدبهم ، وقد بلغ عدد هؤلاء فى زمن الأمير سودوب مايزيد على السبعمائة والخمسين مابين

عجم ومغاربة ومصريين وبعض التجار والجنود . وكان لكل طائفة من هذه الطوائف رواق خاص بها . وكان الجامع فى ذلك الوقت عامراً بقراءة القرآن والاشتغال بأنواع العلوم الدينية والفقه . وصار أصحاب الأموال والموسرين يقصدون الجامع ببرهم وإحسانهم فى المناسبات والمواسم . فأمر الأمير فى جمادى الأولى من عام ٨١٨ هـ بإخراج جميع المجاورين واللاجئين من الجامع الأزهر ومنعهم من الإقامة فيه بدعوى أنهم استخدموا الجامع فى غير ما أنشىء له وأنهم يرتكبون فيه المنكرات. فلما تلكأوا فى إطاعة أمره قبض على عدد كبير منهم وأمر بضربهم فى صحن الجامع وساعده على ذلك جماعة من أعوانه وبعض الغلمان والسوقة وغوغاء العامة ومن كان يرغب فى السلب والنهب . فحل بساكنى الجامع البلاء والعطب ووقعت فيهم السرقة فسلبت فرشهم وملابسهم وكتبهم . وأصبح الجامع قاعا صفصفا وهجره جميع من كان فيه إلى أن قبض السلطان على الأمير سودوب لخيانته وسجنه فى دمشق .

وشيد الطواشى جوهر القنقبائى المتوفى عام ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ — ١٤٤١ م) مدرسة بالقرب من المسجد هى المدرسة الجوهرية .

ويعد الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى (٨٧٢ — ٩١٠ هـ) (١٤٦٧ — ١٤٩٦ م) المصلح الأكبر للأزهر فى القرن التاسع الهجرى ، فقد أحدث فيه تجديداً ظاهراً ، فأنشأ الباب المسمى (باب المزينين) والمنارة التى داخله وفسقية وسبيلا وصهريجا وميضأة ، وبنى على باب الجامع مكتبا ونقش فى الحجر على الباب بعد كتابة كوفية صعبة

القراءة «إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء مانوى ، لاإله إلاالله محمد رسول الله ، نصر من الله وفتح قريب (البسملة) أمر بإنشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان الأشرف قايتباى بتاريخ شهر رجب الفرد فى ثلاثة من سنة . . . . . . » ولا يزال اسم قايتباى على أحد المحاريب وبعض الشبابيك ، ويقال بأن رواق الشوام ورواق الأتراك من إنشاءه ، كما جدد رواق المغاربة ونقش على بابه « أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الأشرف قايتباى على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود غفر الله لهما » ويقول ابن إياس أن هذا السلطان كانت له عادة غريبة ، فقد كان يذهب إلى الأزهر متخفيا فى زى مغربى للصلاة ولسماع مايقوله الناس عنه ، على أن ابن إياس لم يذكر النتيجة التى أفضى إليها هذا العمل .

وفى عام ٩٠٠ أنفق الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم خمسة عشر ألف دينار من ماله على عمارة الجامع فجاء فى غاية الحسن ، وكتب على بعض خزائن الكتب « بسم الله الرحمن الرحيم ، وقف هذه الخزانة الفقير لله تعالى الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود على المجاورين اليمنية بالجامع الأزهر » .

وفى عام ٩٠٤ هـ (١٤٩٩م) رتب السلطان أبو سعيد قنصوه الأشرف خال الناصر محمد بن قايتباى الخبز والخزيرة (عصيدة اللحم) فى الأزهر فى أيام رمضان ، ولما جاء الملك الأشرف قانصوه الغورى ٩٠٦ هـ

ضاعف الإحسان فى شهر رمضان وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين داخل باب المزينين .

وأفل نجم الأزهر فى العهد العثمانى . فقد قضى السلطان سليم على معالم الحضارة الشرقية عامة والمصرية خاصة ، فانتزع من مصر جميع نفائسها وكتبها وأرسلها إلى القسطنطينية . على أن الأزهر نال بعض الاهتمام من الفاتح سليم ، وأظهر له بعض الرعاية وأكثر من زيارته والصلاة فيه وأمر بتلاوة القرآن به وتصدق على فقراء المجاورين ، كما زاره السلطان عبد العزيز خان فيما بعد .

وفى عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ م) حدد الشريف محمد باشا والى مصر فى عهد السلطان العثمانى محمد الثالث الأزهر ورتب لطلبته الفقراء طعاما يجهز كل يوم ، فكان ذلك حافزا للطلبة على أن يؤموه من جميع البلاد .

وفى عام ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) أوقف عليه محمدباى بن مراد حاكم ولاية تونس أوقافا جليلة ، كما حدد الأمير إسماعيل بك القاسمى ابن الأمير إيواظ بك القاسمى المتوفى عام ١١٣٦ هـ (١٧٢٣م) سقف الجامع وكان قد آل إلى السقوط .

وفى عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) بنى الأمير عثمان كتخدا الفرزوغلى زاوية يصلى فيها العميان وسميت (زاوية العميان) وجدد رواق الأتراك ورحبته ورواق السليمانية (الأفغانيين) .

وفى عام ١١٩٠ هـ أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا مولى جميع الأمراء المصريين فى مقصورة الجامع مقدار النصف طولا وعرضا

يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب النقى وبنى لها محرابا جديداً ومنبرا ، وأنشأ للجامع بابا عظيما جهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأطفال من أيتام المسلمين القرآن ، وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة رخام بديعة الصنع وأنشأ بها رواق الصعايدة المنقطعين لطلب العلم به مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب وبنى بجانب ذلك الباب منارة ، كما أنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع وجعل عليه منارة أخرى وجدد بناء المدرسة الطبرسية ، وأنشأ جهة المشهد الحسينى بابين كبيرين ومنارة وأنشأ ساقية وميضأة ، ولما مات دفن بمدفنه الذى أعده لنفسه بالأزهر عند الباب القبلى .

* * *

رأينا أن بناء الجامع الأزهر الحالى يختلف اختلافا كبيراً عن البناء الأول الذى أقامه القائد جوهر الصقلى . فقد توالت عليه التغييرات والزيادات فضاعت معالمه الأصلية تقريباً حتى أصبح كما نراه اليوم مسجداً جامعاً عظيما . وسنسرد فى هذا الفصل أهم معالم هذا الجامع .

* * *

يعد القائد جوهر أول من بنى مقصورة فى الجامع الأزهر وكانت

تمتد من باب الشوام إلى رواق أهل الشرقية وتحتوى على ست وسبعين اسطوانة من الرخام الأبيض الجيد مرصوصة على صفوف متساوية يعلوها قواصير مرتفعة بين كل عامودين قوصرة . وكان المنبر فى هذه المقصورة ، فلما أراد الأمير عبد الرحمن كتخدا بناء مقصورة جديدة نقل المنبر إلى مكان آخر ، وتتصل مقصورة عبد الرحمن كتخدا بصحن الأزهر بثلاثة أبواب كبيرة يعلو الباب الأوسط منها قبة منقوشة مزينة ببعض كتابات بالخط الكوفى ، وقد أصيبت تلك القبة بخلل فى زمن خديوى مصر العظيم إسماعيل فأمر بترميمها من أوقاف الجامع . وترتفع هذه المقصورة عن المقصورة القديمة بنحو ذراعين . يعلو كل منها فتحات لجلب النور والهواء ، ولهما أبواب تفتح وتقفل عند الحاجة ، وبمقصورة عبد الرحمن كتخدا محرابان ، محراب كبير مرتفع يقع على يمين المنبر وهو مبنى بالرخام وفوق المحراب والمنبر قبة رفعت على ستة أعمدة ، والمحراب الآخر عن شمال المنبر ويعرف بقبلة الشيخ الدردير . أما المقصورة القديمة ، فتحتوى على المحراب القديم المصنوع من الرخام الجيد المتقن الصنع وعليه قبة مرتفعة ، وفى أعلاه صندوق موضوع على رف يقال إن به قطعة من سفينة نوح عليه السلام وقطعة من جلد بقرة بنى إسرائيل . ولكل من هذين المحرابين إمام ومبلغ للصلوات الخمس ، فإمام المحراب القديم شافعى وإمام محراب الأمير عبد الرحمن كتخدا مالكى .

وفى الأزهر كذلك محاريب أخرى ، أحدها لخواجا مصطفى بن

الخواجا محمود بن جلبي . وقد أنشأ الملك الأشرف قايتباى بالأزهر بعض المحاريب والشبابيك التى مازالت تحمل اسمه .

وللجامع الآن منبر واحد فى محراب عبد الرحمن كتخدا ، أما المنبر القديم الأصلى الذى أنشىء فى بداية تأسيسه ، فقد نقل إلى الجامع الحاكمى . وللمنبر خطيب واحد فى الجمع والأعياد .

وصحن الجامع فسيح مكشوف مغطى بالحجر المنحوت ، وقد أنشىء تحته أربعة صهاريج للمياه ذات أفواه من الرخام المغطى بالخشب وكان المجاورون يجلسون فى الصحن عادة للمطالعة فى أيام الشتاء تحت أشعة الشمس ، وكانوا ينامون فيه صيفا ، ويخلى للصلاة عند ازدحام المقصورتين .

ودوائر الصحن بواتك مبنية على قواصر قائمة على عمد كثيرة من الرخام . كان بعضها أروقة وبعضها يتعلم فيه الأطفال القرآن الكريم .

وللأزهر تسعة أبواب ، أشهرها الباب المعروف بباب المزينين ، وهو شامخ عظيم مرتفع ، نقش على وجهته من الخارج أبيات مموهة بالذهب مشتملة على تاريخ بنائه عام ١١٦ هـ ، وهى :

إن للعلم أزهراً يتسامى ... كسماء ما طاولتها سماء
حيث وافاه البناء ولولا ... منة الله ما تسامى البناء
رب إن الهدى هداك وآيا ... تك نور تهدى به من تشاء
منذ تناهى أرخت باب علوم ... وفخار به يجاب الدعاء

وهذا الباب الموجود الآن من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا ،

وقد مر بنا ذكره ، أما الباب الأصلى فهو خلف هذا الباب الجديد وكان يجلس عنده المزينون لحلق رؤوس المجاورين فعرف الباب باسمهم .

والباب الثانى يسمى الباب العباسى ، ويقف فى صف الباب الأول ، بنته وزارة الأوقاف عند بناء الرواق العباسى ، والباب الثالث باب المغاربة ، والرابع باب الشوام ، والخامس باب الصعايدة ، وهو من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا أيضا ، أما الباب السادس باب الحرمين ، والسابع باب الشوربة ، أما الباب الثامن باب الجوهرية فهو من إنشاء جوهر القنقباتى ، والباب التاسع باب الميضأة .

وكان للجامع ست منارات يؤذن عليها فى الأوقات الخمس وفى الأسحار ، وتوقد فى ليالى رمضان والمواسم . المنارة الأولى وكانت خارج باب المزينين على يمين الداخل ، وقد أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وقد أزيلت تلك المنارة عند تجديد الرواق العباسى ، وثلاث منارات مشرفة على صحن الجامع . أحدهامنارة الاقبغادية ، وهى أول منارة بنيت من الحجر فى مصر بعد المنارة المنصورية ، إذ كانت المنائر قبل ذلك تبنى بالآجر ، وقد أقام تلك المنارة والمدرسة الأمير علاء الدين أقبغا ، وثانيـة الثلاث أنشأها الملك الأشرف قايتباى مع الباب الذى تحتها ، وهى أعلى منارة فى الجامع الأزهر وأعظمها ، أما الثالثـة فقد بناها السلطان قانصوه الغورى . ويتوصل إلى المنارتين الأخيرتين من باب صغير فى صحن الجامع ، وأنشأ المنارة الخامسة والسادسة بجانب باب الصعايدة الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وجميعها من الحجر الاله

المتقن الصنع ، وقد جرت العادة أن لا يؤذن على تلك المنارات إلا العميان محافظة على عدم كشف عورات المساكن المجاورة لها ، ولكل مأذنة خلوة لإقامة مؤذنها ، وأذان الأزهر تبنى عليه أذان أكثر الجوامع فى القاهرة .

* * *

وأهم المدارس الملحقة بالأزهر المدرسة الطيبرسية التى أنشأها الأمير علاء الدين الطيبرسى الخازندارى نقيب الجيوش على مساحة قدرها مئة وسبع وستون متراً مربعا تقريبا وفرغ من عمارتها عام ٧٠٩ هـ . وقد بنيت تلك المدرسة على شكل جامع صغير ملحق بالجامع الأزهر ، ورتب الأمير بها درسا للفقهاء الشافعية ، وأنشأ بها ميضأة وحوض ماء لشرب الدواب وفرش أرضها بالرخام الأنيق وزين سقفها بالذهب . ولما فرغ من بناءها وقدمت إليه كشوف الحساب ، غسلها فى وعاء ماء وقال « شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه » ولما مات دفن بالمدرسة وقبره موجود بها للآن ، ولهذه المدرسة شبابيك من النحاس تطل على الجامع ، وقد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف الأمير طيبرس التى كان قد أوقفها على المدرسة والأزهر ، فخرب أكثر أجزاء المدرسة والجامع ، فجددها الأمير عبد الرحمن كتخدا فيما جدد من عمائر الأزهر فأصلح ما فيها من الأعمدة الرخام والقبلة العظيمة ، وفى مؤخرة المدرسة على يمين الداخل ضريح بانيها وعليه قبة صغيرة . وكان بالمدرسة

خزانة كتب كبيرة عامرة بدرس العلم ومطالعته على الدوام وكان يقرأ فيها أحد كبار الشافعية .

ويلى المدرسة الطيبرسية فى الأهمية المدرسة الاقبغادية وتقع بجوار الأزهر على يسار الداخل إليه من بابه الكبير الغربى (باب المزينين) وهى تشرف بشبابيك على الجامع . كان موضعها دار الكبير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، أنشأها الأمير أقبغا ، وكان رقيقا للتاجر عبد الواحد بن بدال ، اشتراه منه الناصر قلاوون وتقلب فى مناصب الدولة .

وأنشأ أقبغا بجوار المدرسة قبة ومنارة من الحجارة المنحوتة، ولكنها كانت مدرسة مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد شىء ألبتة ، وقد اغتصب الأمير أقبغا عبد الواحد أرض هذه المدرسة، بأن أقرض ورثة عز الدين أيدمر الحلى مالا وأمهلهم حتى تصرفوا فيه واشتط فى طلبه منهم ، فاضطروا تحت قسوته إلى التخلى له عن دراهم فاستولى عليها وأمر بها فهدمت وأقام مكانها مدرسة ، ولم يكتف بذلك، بل بناها بالسخرة والعسف والظلم والجور ، حتى الأخشاب والزيوت والأحجار رفض أن يدفع لها ثمنا ، فقد كان فظا غليظ القلب ،وقد انضم فى آخر أيامه إلى فتنة قام بها الناصر قلاوون ضد أخيه الملك الصالح عماد الدين فقبض عليه الملك الصالح وأعدمه عام ٧٤٤ هـ .

وأنشأ الأمير أقبغا لهذه المدرسة ثلاثة أبواب ، أحدها يوصل إلى صحن الجامع بعد المرور فى رواق الفيومية وأقام فى وسطها ستة عشر

عموداومحرابا جيد الصنع، وأنشأ بهامدفنا أنيقا كان معدآ لأن يدفن به ولكنه دفن بالأسكندرية بعد أن أوقف على المدرسة أوقافا وشرط ألا يلى النظارة أحد ورثته ، وقد أجرى بها الخديوى إسماعيل عمارة بعمارة الأزهر وكان يدرس بها كثير من العلوم وكان يجلس بها بعض المؤدبين لتعليم الأطفال ، وقد ذكر المقريزى أنه كان بجانب المدرسة الجوهرية منظرة الجامع الازهر حيث كان الخلفاء الفاطميون يجلسون أيام الوقود الاربعة .

٭ ٭ ٭

وكان المجاورون فى القرون الوسطى يقيم بعضهم فى المسجد والبعض الاخر خارجه ، فالذين كانوا يقيمون داخل المسجد ينقسمون إلى طوائف لكل طائفة حارة خاصة ورواق خاص ، فالحارة المكان الذى كان المجاورون يضعون فيه متاعهم وملابسهم وأدواتهم الخاصة . وكانت تعرف بهم كحارة السلمانية والدكة والممشى والعفيفى والذرقانية وغيرها ، ولكل حارة شيخ يرجع إليه طلبتها فى جميع أمورهم .

أما الرواق فهو المكان الذى كان مقرا لسكنى الطلبة ، وهى غرف متصلة بأسوار الازهر على طول هذه الاسوار ، وكانت تفرش بمايلزم لها من الفراش ويعد بجانبها محلات للغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لإعداد الطعام وكانت تقام فيه الاذكار ويحتدم الجدل والنقاش ، وأول من جعل لطلاب الازهر رواقا يسكنون فيه ، هو الخليفة العزيز بالله

ابن المعز لدين الله الفاطمى ، ثم أخذ الملوك والأمراء وأصحاب اليسار فى تشييد الأماكن لسكنى الطلاب من مصريين وغرباء .

وكانت لكل طائفة جهة يقيمون بها وتصرف عليهم الجرايات والمرتبات ، ولكل طائفة نقيب وشيخ يحكمهم ويدافع عنهم ويخاطب فى مسألتهم أولى الأمر وشيخ العموم . كما أن لكل طائفة منهم أوقافا وعقارات يصرف عليهم من ريعها ، هذا غير الأوقاف العامة التى كانت موقوفة على الأزهر كله . ويتبع التقسم إلى أروقة غالبا التقسيم الجنسى أو التقسيم المذهبى ، وفى أحوال قليلة يتبع المنشآت الخاصة . والأروقة هى :

١) رواق الصعايدة : كان هذا الرواق أشهر أروقة الأزهر وأغناها وأكثرها أهلا وأوقافا ، فكان به ما يزيد على ألف عالم ومجاور وقد جرت العادة بأن يأتى مجاورو هذا الرواق من المنطقة التى تقع بحرى مدينة منية ابن خصيب إلى أسوان ، ومع ذلك فلم يكن يقطن الرواق إلا عدد قليل من مجاوريه ، إذ كان معظمهم يسكن البيوت والوكالات بالقاهرة .

وهذا الرواق على يمين الداخل فى باب الصعايدة . وكان به خزانة كبيرة تحتوى على عدد عظيم من الكتب الهامة ، وكان له مخزن لملابس الطلاب ومطبخ . وقد أنشىء تحت هذا الرواق ضريح كبير أوقف على جميع منافع الأزهر .

أنشأ هـذا الرواق الأمير عبد الرحمن كتخدا لصـداقته الشديدة للشيخ على العدوى شيخ الرواق فى ذلك الحين ، وأوقف عليه بعض الأوقاف والرباع ، وحذا حذوه كثير من أهل البر والخير فرتبوا له الجرايات اليومية والمرتبات السنوية على رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والحاج محمد باشا سلطان من منية ابن خصيب ، فقد أوقف عليه مئة وخمسين فدانا من أجود أطيانه بالمنيا . ويوجد بجانب الرواق مدفن منشئه الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وهو جميل الصنع تعلوه قبة مرتفعة وعليه تركيبة رخام منقوشة بها أسماء العشرة المبشرين بالجنة : أبو بكر الصديق بن أبى قحافة ، عمر بن الخطاب العـدوى ، عثمان بن عفان الأموى ، على بن أبى طالب الهاشمى ، طلحة بن الزبير التيمى ، سعد بن أبى وقاص الزهرى ، سعيد بن زيد العدوى ، عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، عبده بن عامر بن الجراح القهرى ، الزبير بن العوام الأسدى رضى الله عنهم ، وعليها أيضاً أسماء أهل الـكهف .

وكان أكابر رجال الأزهر يتخذون هـذا المدفن مجلساً يجتمعون فيه المفاوضة والتشاور فى المهمات .

وكتب على القبة من الجانب الشرقى أن عليـاً كرم الله وجهه كان إذا وصف النبي عليه السلام قال : لم يكن بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة فى القوم ، ولم يكن بالجعد القطط إلى أن قال : وإذا التفت ، التفت معاً ، بين يديه خاتم النبوة وهو خاتم النبيين ، وكان صلى الله عليه وسلم ، أجود الناس صدراً ، إلى أن قال : وأكرمهم عشيرة ،

لم أر قبله ولا بعده مثله ، وعلى الجهة القبلية من الشعبة الشعر الآتى :

بروض نعيم فاز كهف مكرم | وحاز بفضل الخير جنات رضوان
هنيئا له فالحوا الخلد أرخت | لقد فاق فى الفردوس عبد الرحمن

وجدد خديو مصر العظيم إسماعيل باشا باب الصعايدة الكبير مع مافوقه من المكتب بمباشرة ناظر الأوقاف الأمير أدهم باشا ونقش على وجهته من الخارج بالخط المذهب هذه الأبيات :

باليمن أقبل باب سعد الأزهر | وسمت محاسنه بأعجب منظر
وغدا محازا للحقيقة بالهدى | موصول مورده جميل المصدر
باب شريف للنجاح مجرب | إنشاءه نادى بخير الأعصر
فى دولة إسماعيل داور عصرنا | يمن يسر كمال باب الأزهر

٢) رواق الحرمين : وهو داخل باب مقصورة الأمير عبدالرحمن كتخدا . وهو رواق صغير كان يسكنه مجاورو أهل الحجاز ومكة والمدينة والطائف ، ولكن أهله كانوا قليلين لاكتفائهم بالمجاورة بالحرمين الشريفين .

٣) رواق الدكارنة الغورية : وهو فى طرف المقصورة الجديدة عن شمال الداخل من باب الصعايدة ولم يكن يسكنه كذلك إلا القليل من المجاورين .

٤) رواق الشوام : عن يمين الداخل من باب الشوام ، وبابه فى المقصورة القديمة ، ويقال إنه من إنشاء السلطان قايتباى ، ثم زاد فيه

الأمير عثمان كتخدا فصار أكبر من رواق الصعايدة ، بأعلاه كثير من المساكن الخاصة بالمجاورين ، وقد أوقف عليه الأسيران أوقافا كثيرة مازالت تجرى على الرواق إلى يومنا هذا . وكان الرواق مسكنا للمجاورين القادمين من بلاد الشام . وكانت به خزانة كبيرة لحفظ الكتب ، وقد أنشىء به بئر خاص للسقاية والوضوء ولكنه استبدل بعد ذلك بصنبور ماء .

٥) رواق الجاوه : وهو رواق صغير بين رواق السليمانية ورواق الشوام وكان سكانه قليلين .

٦) رواق السليمانية : ويقع بين رواق الجاوة وباب الشوام ، ويحتوى على خمسة مساكن وكانت به خزانة كتب كبيرة عامرة بكثير من الكتب القيمة .

٧) رواق المغاربة : فى الجانب الغربى من صحن الجامع ، جدده الملك الأشرف قايتباى وكانت قد تهدمت مساكنه وهجره مجاوروه ، وللرواق خمسة عشر بائكة قائمة على أعمدة من الرخام الأبيض . وفيه مساكن علوية وقد أنشئت به خزانة كتب ومطبخ وبئر استبدلت بعد ذلك بصنبور ماء . وقد كتب فى شروط الأوقاف التى تجرى عليه أن لايستحق مرتباته ولاجراياته إلامن كان مالكى المذهب . وكان يقطن فيه المجاورون من طرابلس وتونس .

٨) رواق السنارية : على يمين الداخل من باب المغاربة قبل باب الأتراك ، وفى أعلاه كثير من المساكن ، أنشأ هذا الرواق ساكن

الجنان محمد على باشا الكبير والى مصر على ربع اشتراه خصيصا بناء على رجاء شيخه الشيخ محمد على وداعة السنارى ، وبنى فى أسفله حانوتين أوقفهما على الرواق ورتب له ثمانين رغيفا كل يوم .

٩) رواق الأتراك : على يمين الداخل من باب المزينين وله باب يطل على صحن الأزهر ، والرواق من إنشاء السلطان قايتباى . ثم رممه وزاد عليه الأمير عثمان كتخدا القازوغلى وبنى به رحبة مسقوفة ، ويحتوى الرواق على ستة عشر عموداً من الرخام واثنى عشر مسكنا علويا . وكانت به خزانة كتب عظيمة ، عامرة بالثمين من الكتب والمؤلفات والمخطوطات ومطبخ عامر وبئر . ثم مدت إليه أنابيب المياه فيما بعد . ويستحق إيراد أوقافه كل مجاور تركى حتى العتقاء منهم ، وكان الرواق نظيفا معتنى به ، وأهم مايقص عن هذا الرواق ، أنه فى عام ١٢٩٣ هـ . اعتدى أحد الطلبة على الشيخ راشد شيخ الرواق فى ذلك الحين بسكين تسبب عنها بتر أصابعه ، وذلك لأن الشيخ أمر بقطع الجراية عن الطالب المذكور لسوء سلوكه . وكان الشيخ راشد من مماليك ساكن الجنان محمد على باشا . فقبض على الطالب وكان قد فر هاربا وحكم عليه بالسجن بليمان الاسكندرية بضع سنوات ثم نفى بعد ذلك .

١٠) رواق البرنية : ويقع هذا الرواق خارج باب الأتراك فى زاوية الرحبة المسقوفه ، وهو مكان أرضى صغير يخيل لمن يراه أنه جزء من رواق الأتراك .

١١) رواق الجبرتية : وهو داخل رواق البرنية ولكنه أوسع

منه ومع قلة أهله فقد ظهر من بينهم علماء فطاحل نوابغ منهم الشيخ الجبرتى الذى استمر شيخا للرواق مدة طويلة .

١٢) رواق اليمنية : ويقع بجوار رواق البرنية ، له باب على الرحبة ، وهو مكان أرضى صغير أوقف عليه الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود خزانة كتب كبيرة .

١٣) رواق الأكراد : على يمين الداخل من باب المزينين ، بأعلاه مساكن كثيرة لسكنى المجاورين وهو يجاور المدرسة الطيبرسية وتطل المدرسة عليه بشباك صغير .

١٤) رواق الهنود : وهو على يمين الداخل من باب المزينين ، وقد أنشىء به مسكن أرضى واحد وأربعة مساكن علوية خاصة بالمجاورين الهنود ، أما المسكن الأرضى فكان خاصاً بالمجاورين الفشنية ، وكان هذا الرواق فى الماضى يعرف برواق الونائية نسبة إلى أهل وناء من أعمال الفشن .

١٥) رواق البغدادية : ويقع بأعلى رواق الهنود ، ويشتمل على مسكنين ومطبخ ، وكان مجاوروه قليلى العدد .

١٦) رواق البحيرة : وهو رواق صغير على شمال الداخل من باب المزينين ، وكان بابه بائكة من بوائك صحن الجامع فاقتطع من البناء جزء منه وحول إلى رواق وشيخه مالكى .

١٧) رواق الفيومية : فى الزاوية الشرقية من الصحن وكان بابه

كرواق البحيرة بائكة من بوائك الصحن ، وكان يحتوى على خزانة كتب كبيرة وشيخه مالكى كذلك .

١٨) رواق الأقبغاوية : يقع بالمدرسة الأقبغاوية ، وله رواق على رواق الفيومية .

١٩) رواق الشنوانية : وكان يعرف كذلك برواق الأجاهرة ؛ ويقع بجوار رواق الفيومية .

٢٠) رواق الحنفية : ويقع بجوار رواق الفيومية بين الميضأة الكبرى ومكان ساقية المدرسة الأقبغاوية وبابه يوصل إلى صحن الجامع بـرداب طويل كان جزءا من رواق الفشنية ثم اقتطع منها بتعويض ، أنشأ هذا الرواق والى مصر عباس باشا الأول ، إذ اشترى ما كان فى مكان الرواق من منازل ثم أزالها وأقام مكانها رواقا لأهل بلد الشيخ البيجورى ، شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت . ومات عباس باشا قبل أن يتم الرواق ، فقام بإتمامه أبو بكر راتب باشا الكبير من ماله الخاص . وجعله رواقا للمجاورين الحنفية المصريين ، وبنى به ثلاثة عشر مسكنا لمجاوريه المتقدمين المكتوبين بدفتره . وأنشأ له خزانة كتب كبيرة ووهبها كثيرا من الكتب والمؤلفات كما أوقف عليه أوقافا غنية وجعل النظر عليها لمفتى الحنفية بمصر .

وفى عام ١٣١٧ تولى النظارة الشيخ الإمام محمد عبده فزاد فى مرتبات أهله ، وكان للرواق باب ينفذ إلى الميضأة فأغلق بعد أن استغنى عن الميضأة بصنبور ماء . وقد أنشأ راتب باشا للرواق مجرى لجلب المياه من مصانع الجامع إلى ميضأته .

٢١) رواق الفشنية : وهو بين رواق الحنفية وباب الميضأة وبابه يطل على الصحن وبه أربعة أعمدة من البوائك غير العمد الداخلية. وقد أوقف عليه سلطان باشا كثيرا من الأراضى بالمنيا .

٢٢) رواق ابن معمر : ويقع على يمين الداخل إلى الميضاة وبعضه من بوائك الصحن وعمده ثمانية وهو رواق مشهور بكثرة من كان ينتمى إليه من المجاورين المختلفى الجنسية فهو لا يخص مجاورى منطقة معينة بخلاف غيره .

٢٣) رواق البرابرة : ويقع عن شمال الداخل من باب المقصورة الشرقى وكان يسكنه مجاورو البربر .

٢٤) رواق دكارنة صليح : بجوار رواق الشرقاوية .

٢٥) رواق الشرقاوية : يقع فى النهاية البحرية من المقصورة القديمة ، أنشأه إبراهيم بك أحد البكوات المماليك .

والسبب فى بنائه أن الشيخ الشرقاوى شيخ الرواق فيما بعد ، كان يسكن ومعه مجاوروه المدرسة الطيبرسية ، وكان لهم مخزن برواق معمر فنشب خلاف شديد بين مجاورى الشرقاوية ومجاورى رواق معمر ، انتهى بأن ضرب مجاورو الشرقاوية شيخ رواق معمر ضربا مبرحا ، فنعهم من الإقامة بالمدرسة الطيبرسية ، فاتصل الشيخ الشرقاوى بامرأة فقيهة عمياء كانت ترتل القرآن فى قصر عديلة هانم ابنة إبراهيم بك . وقامت المقرئة بدور الوسيط لدى الوالى وابنته وأقنعتهما بضرورة بناء رواق خاص بأهل مديرية الشرقية بالأزهر، فوافق إبراهيم بك واغتصب

بعض الأراضى الفضاء التى كانت أمام الجامع وأقام عليها الرواق الذى نقلت إليه أحجار البناء وعمده الرخام من جامع السلطان بيبرس البندقدارى .

٢٦) رواق الحنابلة : ويقع بجوار زاوية العميان ، أنشأه الأمير كتخدا منشىء الزاوية نفسها على جزء صغير من الزاوية ، وهو يحتوى على بعض المساكن العلوية ، وقد جدد تلك المساكن فيما بعد راتب باشا الكبير ، وأجرى على شيخ الرواق وتلاميذه مرتبات كبيرة وجراية قدرها مئة وعشرون رغيفا كل يوم .

٢٧) الرواق العباسى : أنشأه الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٣١٥هـ فى مشيخة الشيخ حسونة النواوى للأزهر وأنفقت عليه الأوقاف ستة آلاف وثمانين جنيها ، ويقع هذا الرواق فى الحدود الغربية للجامع مطلا على الشارع ، وهو يشتمل على أماكن متعددة ، وكان يجمع الكثير من أهالى الأروقة ، وأنشأ فيه زاوية كبيرة بمحراب جميل الصنع دقيق التركيب ، وأنشأ به محلا لطبيب الجامع وصيدلية ومحلا لمكتبة الجامع .

* * *

وأقيم بالجامع سبع مزاول ، أربع منها فى صحنه لمعرفة وقت الظهر على يمين باب المزينين وثلاث لمعرفة وقت العصر . ولا يوجد الآن من هذه المزاول إلا مزولة واحدة عملها بنفسه الوزير أحمد باشا كور الذى

كان واليا على مصر عام ١١٦١ هـ . وكان هذا الوزير من أرباب الفضل ذو ولع شديد بالعلوم الرياضية ، وكتب على تلك المزولة الأبيات الآتية :

مزولة متقنة نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها هذا الوزير الأمجد
تاريخها أتقنها هذا الوزير أحمد

وقد نصبت تلك المزولة على يسار الداخل فوق رواق معمر .

* * *

وكان للأزهر ثلاث ميضآت . الأولى هي الميضأة الكبرى وكانت على شمال الداخل من باب المزينين ويطل بابها على صحن الجامع في وسطه بين رواق معمر ورواق الفشنية ، وهي متسعة يبلغ طولها نحو عشرة أمتار وعرضها خمسة ، أنشئت في وسطها فوارة كبيرة لمد الميضأة بالماء . وأقيم على الميضأة سقف من الخشب المتين القائم على ثمانية عمد ، وأحيط بالميضأة من ثلاث جهات بأربعة وثلاثين مرحاضا ذات أبواب خشبية وكان الماء في الماضي يصل إلى تلك الميضأة من المصنع الكبير الذي بجوار الساقية . وكان للميضأة مجرى لتصريف الفضلات يجرى تحت حي الحسينية كما كان لها خدم لغسلها وتنظيفها .

والميضأة الثانية هي ميضأة زاوية العميان ، وكانت متوسطة الحجم والثالثة ميضأة المدرسة الطيبرسية ، قام بإنشائها الأمير عبد الرحمن

كتخدا عن يمين الداخل من باب المزينين ، وقد أهمل استعمالها ، بل اندثرت معالمها وضمت من زمن بعيد إلى المكتبة الأزهرية .

وأنشئت فى الصحن أربعة صهاريج أفواهها من الرخام كأفواه الآبار ، ولها أغطية من الخشب وأقفال من الحديد . وكانت تلك الآبار تملأ كل سنة ، وأنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا صهريجا كبيراً تحت رواق الصعايدة ، كما أنشأ السلطان قايتباى صهريجا آخر تجاه باب الدكارنة تابعاً للجامع .

وكان بكل بائكة بالجامع قنديل ، وهذه القناديل كانت تنار جميعاً وتزاد إلى الضعف فى شهر رمضان ، وتعلق فى أوتار من الخشب مثبتة تحت قواعد البوائك ، وكانت توقد من ريع أوقاف الجامع .

وأول من أوقف تلك القناديل على الجامع الأزهر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وكان لهذه القناديل مكان خاص تحفظ فيه لوقت الحاجة حتى لا تمتد إليها يد السرقة .

وقد فرش الجامع من قديم الزمن بالحصير ، يشترى من ريع أوقاف الجامع ، ويفرش كل عام ثم صار يفرش كل ستة شهور ، ولم يفرش بالسجاجيد إلا منذ زمن غير بعيد .

تقاليد الأزهر

إمتاز الأزهر منذ إنشائه ببعض التقاليد الخاصة التى بقيت تلازمه على مر العصور وما زال بعضها باقيا إلى يومنا هذا .

كان الطلبة يسمون (المجاورين) لأنهم كانوا يسكنون بجوار الأزهر ويسمون طلابا بوصفهم ممن يطلبون العلم ، أما أعضاء هيئة التدريس فكانوا يسمون بالمدرسين أو الأساتذة ، ولكنهم كانوا يسمون أنفسهم (خدمة العلم) تواضعاً .

وكان بعض العلماء يكثرون الصمت ويقللون الكلام بقوله عليه الصلاة والسلام « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع » .

كما نجدهم يتحاشون لبس الحلى والجواهر لأن النبى نزع من أصبعه خاتم الذهب أثناء خطبة له . ويمتنعون عن تدخين لفائف التبغ ، بل يستعملونه سعوطاً ، لأن تدخينه يعتبر حادثا ، وهم يجتهدون فى الابتعاد عن المحدثات لقول ابن مسعود « ألا إياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثها » .

ولم يكن يأتى إلى الأزهر من الطلاب فى الأزمان القديمة إلا كل من قارب البلوغ ، ويبتدىء الطالب بمجرد وصوله إلى الأزهر بحفظ القرآن . ولكن غالبية الصعايدة لم يكونوا يهتمون بحفظه ، بعكس مجاورى الوجه البحرى ، فإنهم كانوا يبذلون مجهوداً كبيراً فى استيعابه ليستعينوا به على الكسب .

وكان لطلبة الأزهر نظام خاص بحضورهم وغيابهم . فكان للجامع دفتر يقيد فيه أسماء المنتسبين إليه من الطلبة والمدرسين وبيان التابعين لكل رواق من أرباب الجرايات ، والأزهر قديما لم يكن يسمح بالغياب بدون إذن أو الانقطاع عن حضور حلقات الدرس ويعاقب المخالف بقطع جرايته عنه . بل كان يمنع الطالب من الاشتغال بحرف خارجية .

ومع هذا فقد كان الأزهر يعوزه النظام الدقيق ، فقد تمكنت بين الأزهريين عادة الغياب كما يشاءون ، وكتب ضمن مجاورى الأزهر من لم يعرف بابه منذ سنين ، كما كان بينهم الكثيرون من أرباب الحرف والصنائع لا يقرأون ولا يكتبون ويتناولون فى الوقت نفسه مرتباتهم مع النقباء والرقباء .

واعتاد الطلبة أن يجهزوا دروسهم قبل حضورهم على شيخهم جماعة أو أفراداً ، وأحيانا يقوم أعلم الطلبة بمطالعة الدرس لإخوانه حتى إذا حضروا إلى أستاذهم كانوا على بينة ومعرفة بما سيلقى عليهم ، وكانوا فى بعض الأحايين يشتركون فى شراء الكتب الغالية الثمن ويطالعونها معاً .

وكان من عاداتهم أيضاً عند ختم الكتاب أن يأتوا حلقة الدرس

بالمباخر والقماقم الملآنة بالطيب والعطريات وبعضهم يأتى ببعض الفواكه الجافة . وبعض الختم يرتل بعض الحاضرين شيئا من القرآن ثم يرش عليهم ماء الورد وتنثر عليهـــم الفواكة من اللوز والتمر ، ثم يقبلون يد شيخهم .

ومن تقاليدهم كذلك عدم الاطلاع على مذهب غيرهم (فالشافعى لا يعنى بمعرفة قواعد المذهب المالكى مثلا) .

وكان المجاورون الصعايدة يحملون معهـم من بلادهم مؤونة طعام تـكفيهم نصف عام أو أكثر ، من خبز وسمن وجبن وكشك وعدس وبعض النقود ، كل على حسب مقدرته المـاليـة . ومعظمهم لم يكن يقطن الأزهر ، بل يسكن الوكالات والتكايا مع تقييد أسمائهم فى دفتر رواقهم ليكون لهم حق الاستيـلاء على الجراية . أما من كان يسكن الأزهر منهم فهو الفقير المعدم . ونادرا ما كان الصعايدة يتركون القاهرة للسفر إلى بلادهم خلال الأجازات المدرسية لبعد بلادهم عن العاصمة ، بل ينتظرون حلول عطلتهم الدراسية السنوية التى كانت تبتدىء من رجب إلى شوال ، وقد يتزوجون أثناء هـذه الفترة ويتركون زوجاتهم فى بلادهم . ومن الصعايدة من لم يكن يبرح القاهرة طيلة حياته الدراسية حتى ينال إجازة الأزهر .

أما أهل الوجه البحرى فكانوا كثيرى الزيارة لبلادهم لقربها من القاهرة خصوصا فى العطلات الرسمية كالعيدين ومولد السيد البدوى

والمولد النبوى ويوم عاشوراء ومولد سيدنا الحسين ومهرجان المحمل ومهرجان قطع الخليج . فكانوا يحضرون من بلادهم حاملين القليل من الزاد الذى يتجدد كل شهر . ومعظمهم كان يسكن الأزهر لقلة متاعهم وشدة فقرهم ، فكانوا ينشرون خبزهم فى صحن الجامع ليجف ويبلونه بقليل من ماء الصهاريج عند الطعام ليسهل مضغه .

ومعظم المجاورين من أهل مصر لم يكن لهم مورد رزق ولا طرق كسب ، فقليل منهم كان ينفق مايرسل إليه من مال من أقربائه ، والباقى سواء أكانوا طلبة أو مدرسين ، كان جل اعتمادهم على ما يصيبهم من إيرادات أوقاف الجامع أو هبات أهل اليسار والخير ، فإذا قل إيراد الأوقاف والصدقات فى سنة من السنين ، بحيث أصبح لا يكفى الطلاب اضطروا إلى البحث عن مورد آخر للعيش . فكانوا يؤدون بعض الخدمات الصغيرة فى المنازل والأسواق أو يرتلون القرآن أو يلقنون الناشئة العلم أو ينسخون الكتب والمخطوطات .

وكان المجاورون يقومون بخدمة أنفسهم بأنفسهم ، فيغسلون ثيابهم ويطهون طعامهم ، وأكثر الفريقين الصعيدى منهم والبحيرى يلبس الزعابيط والدفافى الصوف ، بعضها مصبوغ بالنيلة وبعضها غير مصبوغ وهم يختلفون فى الزى تبعا لاختلاف بلادهم وثروتهم . وكانوا يستعملون الفراوى فى الجلوس عليها أثناء الدرس أو النوم فى الأروقة أو الجلوس عليها فى الشتاء فى شمس صحن الجامع . والمجاورون مثل فى القصد

والاعتدال فى مسكنهم وملبسهم وغذائهم . على أنهم لم يكونوا على علم كاف بالقواعد الصحية .

أما أهل الأقطار الخارجية ، أى المجاورون الغرباء فكانوا أحسن حالا وأنظف ثيابا وأبدانا ، لما كان لهم من المرتبات الحسنة والمال الكافى . ومعظمهم كان يسكن الأزهر مع النظافة فى الفرش والكفاية . والفقير منهم كان يتقرب إلى الأمراء والأغنياء ليصيب منهم ما يكفيه للاستمرار فى الدراسة .

وكان من تقاليد الشوام عند انتهائهم من الدراسة ، ويحين موعد سفرهم إلى بلادهم أن يدعوا زملاءهم وأصدقاءهم من الطلبة والأساتذة ويوقدون لهم رواقهم بالشموع ويفرشونهم بما يتيسر لهم من الفرش . وعند ما يتم جمعهم يطاف عليهم بالشربات والقهوة ، ثم يقوم بعض الحاضرين بإنشاد بعض قصائد المديح والتوديع لصاحب الحفل .

ولم يكن المجاور يستطيع السفر إلا بعد أن ينال إجازة من شيخه متوجة باسمه ، تشهد للطالب بأنه أهل للتدريس والإفتاء . ويوصيه الشيخ قبل سفره بالتقوى والتحرى عن الأحكام والعدل فيها .

وكان المدرسون فى أول الأمر يلبسون الملابس الخشنة ، فيلبس الشيخ زعبوط الصوف غير المصبوغ بغير غلالة وعلى رأسه عمامة تسمى المقلة تشبه عمائم الأضرحة ، ومع ذلك فقد كانوا موضع احترام وإعزاز من الأمراء والأعيان والطلبة ، وكان لهم نفوذ كبير لما كانوا عليه من التقوى والورع . وتغير الحال بعد ذلك ، فأصبح الشيوخ يلبسون

الأقبية المفرجة المسماة بالفرجيات ، وهى أردية ذات كمين واسعين تصنع من الجوخ وغيره . ويتمشون بالقفاطين والطنافس الفاخرة والسرموزيات والبوابيج الصفر التى كانت تلبس فى بعض المناسبات كالعيدين والموالد ومقابلة الوالى .

وكان أغلب الطلبة يرتدون العمامة البيضاء ، أما السادة الأشراف منهم فقد صدر لهم عام ٧٧٣ هـ فى عصر الأشرف شعبان بن الناصر قلاوون سلطان مصر إقرار رسمى بالسماح لهم بلبس العمامة الخضراء .

فكان الطلبة يتبعون فى أغلب الأحيان مذاهب آباءهم حينما كانت مشيخة الأزهر متبادلة بين الشافعية والمالكية ، ثم حدث أن انحصرت الفتوى فى مذهب أبى حنيفة ، فاضطر معظم الطلاب إلى اعتناق المذهب الحنفى لاعتمادهم بعد تخرجهم من الأزهر فى معيشتهم على الإفتاء .

وكان المدرسون والطلبة معفين من الانخراط فى سلك الجيش .

ولم يكن نظام الامتحان الحالى معروفا بالأزهر فى أيامه الأولى . ولم يكن الأستاذ يهتم بحضور الطلبة حلقة الدرس أو تخلفهم عنها . إنما كان يتركهم أحراراً . وحسب حضورهم تأتى درجاتهم . وكان الغالب على أولاد العلماء المشهورين عدم النجاح لتكاسلهم واعتمادهم على شهرة آبائهم .

وكانت الدراسة الأسبوعية تنتهى يوم الخميس بعد انتهاء دروس الفقه ، ثم تبتدىء بعد غروب شمس يوم الجمعة . فكان المجاورون يخرجون فى يوم الخميس إلى حى بولاق أو غيره للفسحة ولعب الكرة وغسل الثياب .

وإذا مات مجاور ، اجتمع فى المسجد بعد دفنه ، أصحابه وأهل بلده فيعملون له بعد المغرب عتاقة (لا إله إلا الله) فيوقدون شموعاً صغيرة يلصقونها بالحصر فيحضر جميع المجاورين ويستمر اجتماعهم إلى العشاء .

أما إذا مات أحد العلماء أو الشيوخ ، فيعلن الحزن بالأزهر ثلاثة أيام متوالية ، ويصدر شيخ العموم أمره بعدم عقد أى درس بالجامع فى مدة الثلاثة أيام . ويصعد المؤذنون على المنائر ويقرأون بأصوات مرتفعة صورة الأبرار وهى قوله تعالى (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) وما يليها من الآيات . ويتكرر ذلك على معظم منائر المساجد . فيسمعهم الناس فيهرعون لحضور الجنازة ، ثم يشيع المتوفى إلى الأزهر ويسير أمامه المنشدون يقرأون البردة بأصوات مرتفعة ، ويليهم كثير من العلماء والشيوخ ، وربما حضر بعض الأمراء والأعيان ، فإن كان من أرباب الشهرة والمناصب ، بعث الوالى بعض الجند تكريما للشيخ المتوفى ومحافظة على النظام ، وعند مايدخلون من باب المزينين ، يؤذن المؤذنون لثانى مرة سورة الأبرار ، فإذا ما أنزل من فوق الأعناق ، وضع على دكة المبلغين وقام أحد المشيعين بالقاء مرثية للفقيد . ثم يصلى عليه شيخ الجامع . وجرت العادة أن لا يغطى نعش العالم . وبعد أن يوارى التراب ، يحتفل له ثلاث ليال على العمود الذى كان يدرس عنده حيث يجتمع كثير من العلماء والمجاورين فيعملون له عتاقة (لا إله إلا الله) أو الصمدية ، ويستمر ذلك من الغروب حتى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل . ثم فى كل أسبوع من أربعة أسابيع

بعد صلاة الجمعة ، يجتمعون فى حلقة عند عموده ، ويفرق عليهم ربعات القرآن ، فيقرأ كل واحد جزءاً أو يجلس بعض القراء والمنشدين وسط الحلقة فيقرأ بعضهم آيات من القرآن ترتيلا ، ثم يختمون المجلس بقراءة آخر البقرة والآيات المعتادة فى الختم مع أسماء الله الحسنى وآخر البردة كل ذلك بجمع عظيم ، ثم تقرأ مرثية أخرى .

وكان الأزهر من قديم الزمن مسرحاً لكثير من المشاحنات والفتن التى كانت تنشأ بين المجاورين لأسباب جنسية أو مذهبية ، أو بسبب جشع القائمين بإدارة الأزهر ، الذين كانوا يخصون أنفسهم بمعظم الجراية والهبات والصدقات ، تاركين الطلبة يتضورون جوعا ، وكان أكثر المجاورين قياما بتلك الفتن الصعايدة وصخابو الشام والمكفوفون ساكنى رواق العميان .

* * *

ومنذ أن أنشىء الأزهر تكونت له على مر السنين والقرون حرمة كبيرة وقداسة عظيمة ، فقد كان ملجأ اللاجئين وملاذ الخائفين الذين يحتمون ، ببنائه من حاكم مستبد أو وال قاسى ، خلال القرون الوسطى وما بعدها . بل ذهب للاعتقاد بشدة قداسته أن كثيراً ما كانت تتلى فيه أجزاء من القرآن أو البخارى دفعاً للأوبئة والقحط والمجاعات . وقد صلى فيه سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى على إثر

المجاعة التى شملت وادى النيل عام ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ - ١٣٩٦ م)، وأكلت الأخضر واليابس وقضت على عدد كبير من المصريين، فقد صلى فى الجامع الأزهر متضرعاً إلى الله تعالى أن يخفف من خطر ما أصابها راجيا إليه أن يزيح عن أهلها ما ألم بهم من النازلات .

وفى عام ١١٧٢ هـ (١٥٧٨ - ١٧٥٩ م) أصاب مصر وباء شديد الفتك هو الطاعون، فطلب المجاورون من شيخهم أن يقرأ لهم درساً فى البخارى عسى الله أن ينقذ الناس من شر هذا المرض .

وذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفى - أحد أمراء مصر المماليك - ظلموا أهل بلبيس فجاءوا صارخين ملتجئين إلى الأزهر، فقام شيخه وعلماؤه واتجهوا إلى قصر إبراهيم بك حاكم مصر فى ذاك الوقت، وطلبوا إليه أن يرفع المظالم، فأمر بأن يكف الأمراء وأتباعهم عن اغتصاب أموال الناس، وأن يسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك .

وذكر ابن إياس أن ابن الفارض الصوفى كان مقيما بالأزهر تبركا به .

وحدث عام ١٢٢٠ هـ أن هاجم بعض الجنود الدلامية (نوع من الجنود الأتراك) بعض قرى الريف المصرى ونهبوا الفلاحين والمارة واعتدوا على النساء، فأسرع الناس لاجئين إلى الجامع الأزهر، فاتصل شيخ الجامع بأولى الشأن الذين أمروا بدورهم جنودهم بالكف عن

الاعتداء على الناس وترك الدور لأهلها ، وبإرجاع المنهوبات فرد بعضها.

وليست قدسية الأزهر قاصرة على نفوس المصريين فقط ، بل كان ولا يزال لهذا الجامع مقام عظيم لا يدانيه مقام فى نفوس أهل الشرق والعالم الإسلامى ، فهو موضع تبجيل وإعزاز واحترام الجميع .

جامعة الازهر

مرت بمصر فترات وصل العلم فيها إلى أوج عظمته ، ولكن هذا العلم لم يكن يلق بالطريقة التى نعرفها اليوم ، باجتماع الأستاذ بتلاميذه فى حجرة الدرس ، بل كان متبعاً ما عرفناه فى الأزهر من نظام هو نظام الحلقات ومجالس الدروس . فقد كان هذا النظم معروفا فى مصر منذ القرن الثانى للهجرة ، وكان جامع عمرو هو المكان المختار لإلقاء مثل هذه الدروس ، فقد كان مركزاً اتخذه الصحابة والتابعون لنشر الدين والعلم .

وأخذت الحركة العلمية فى هذا المسجد تنمو وتتسع حتى أمه الكثير من العلماء والأعلام الذين تركوا ثروة جليلة من الكتب والتآليف ، كما كان لتلك الحلقات فضل إخراج عدد كبير من الفقهاء والمحدثين حتى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وأشهر هؤلاء عبدالله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن وهب وسعيد بن الصلت ويحى بن أزهر وسعيد بن عبد الرحمن .

ولم تكن تلك الدراسة فى أول أمرها إلا دراسة دينية فقهية قامت

فى الزوايا التى أنشئت على ممر السنين بالجامع العتيق . وأشهر تلك الزوايا ، زاوية الإمام الشافعى التى كان الناس يهرعون إليها لسماع شروح الإمام وعظاته ، والتى تخرج فيها عدة من أعظم الفقهاء والعلماء فى ذلك العهد . ثم بنى مجد الدين أبى المحاسن الأزدى البهنسى الشافعى وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أيوب ، زاوية سميت الزاوية المجدية ورتب فى تدريسها قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى وأوقف عليها عدة أوقاف بمصر والقاهرة ، ثم الزاوية الصاحبية التى أنشأها صاحب التاج محمد بن فخر الدين ، وجعل لها مدرسين أحدهما مالكى والآخر شافعى وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة ، ثم حذا حذوه كثير من الأمراء وذوى اليسار المهتمين بالعلم ، فما وافى عام ٧٤٩ هـ حتى أربت حلقات جامع عمرو على الأربعين حلقة .

ولم تكن هذه الحلقات كلها من نوع واحد ، بل كانت إما خاصة أو جامعة ، فالعام منها ما كان يقام يوميا بجامع عمرو خصوصاً فى يوم الجمعة الذى كانت حلقته تفوق حلقات بقية الأيام أهمية . إذ كان يوم الجمعة هذا يعد موسما علمياً هاما . حيث يهرع الناس لسماع أكبر عدد من الفقهاء والشعراء والأدباء وهم يتناقشون ويتباحثون فى الفقه واللغة ويتطارحون الشعر ويروون الأخبار .

أما الحلقات الخاصة فهى التى كانت تعقد فى منازل أكابر العلماء والفقهاء حيث كانوا يجتمعون بتلاميذهم وأصدقائهم يقرأون عليهم بعض شروح الفقه الإسلامى وبعض كتب العبادات ويروون بعض

الأشعار . وقد تألقت بعض تلك الحلقات ، اشتهر منها حلقة بيت عبدالله بن الحكم الفقيه المالكى وولديه عبد الرحمن ومحمد وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث . وكانت حلقاتهم موضع التقاء أكابر العلماء والأدباء المعاصرين الذين كانوا يفدون على مصر من مختلف الأقطار . فما أن وفد الإمام الشافعي إلى مصر حتى وجد من تلك الأسرة كل عناية ورعاية وإكرام . فلما أقام حلقته فى جامع عمرو ، كانوا هم أول من شجعه وحضر درسه .

وظل التدريس فى جامع عمرو على هذا المنوال عامر الحلقات وموضعاً لنشر العلم والتعليم مدة طويلة ، واقتفى أثره كثير من الجوامع الشهيرة كجامع أحمد بن طولون ، فلم يأت القرن الرابع حتى كان العلم فى جامع عمرو قد وصل إلى مرحلة مثلى بفضل من كان يؤمه من أقطاب الفقه واللغة أشهرهم أبو القاسم بن قديد وتلميذه الكندى الذى ترك كتابا عظيما فى تاريخ ولاة مصر ومن تولى قضاءها . وأبو القاسم بن طباطبا الحسنى الشاعر .

فلما أن كان عصر الأمير محمد بن طغج الأخشيدى ، أصبحت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة الرفيعة ، وقد لقيت العلوم والآداب بفضل هذا الأمير وولده آنوجور ووزيره الخصى كافور وكثير من أمراء الدولة كل حماية ورعاية . وكانت حلقة الشاعر أبي الطيب المتنبي الذى وفد على مصر عام ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) على إثر

جفوة بينه وبين سيف الدولة ، من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة في هذا العصر .

فنظام الحلقات الذى كان متبعاً فى تلك الحقبة من الزمن كان النظام الوحيد للدراسة الممتازة وكان أساس الحياة العلمية والفكرية فى مصر. فلما أن تحول الجامع الأزهر إلى جامعة ، اتخذت الدراسة فيه نظام الحلقات الموجود فى ذلك الوقت ، إذ لم يكن قد استعيض عنه بنظام آخر . وبانتقال هــذا النظام إلى الأزهر انتقلت معه دراسة العلوم بمختلف أنواعها فازدهرت فيه وترعرعت .

واستمر الأزهر كذلك إلى نهاية القرن السادس حينما ابتدأ ملوك مصر وسلاطينها فى إنشاء المدارس . فأنشأ صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٦ هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو لتدريس الفقه الشافعى ، كما أنشأ بجانبها المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكى ، وكان من أشهر من درسوا فيها العالم المؤرخ ابن خلدون ، وحذا حذو صلاح الدين كثير من أمراء البلاد وأعيانها فأنشأوا كثيراً من مدارس التخصص ، بعضها شافعى والبعض الآخر حنفى أو حنبلى أو لتــدريس الفقه والحديث .

وتعد المدرسة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤١ هـ ، أول مدرسة درس فيها الفقه على المذاهب الأربعة .

ولقد عانى الأزهر منافسة شديدة من جراء وجود أمثال تلك المدارس التى كانت مكتظة بالطلاب ، مستأثرة بأعظم وأحسن الأساتذة

والعلماء ، متمتعة بعناية الأمراء وذوى اليسار وثقتهم . فوهبوها المال والهدايا ، وأجروا عليها الأوقاف والرباع . فكان التدريس بتلك المدارس من الأمانى التى يصبوا إليها كل أستاذ وعالم . فكانت موضع منافستهم الدائمة .

وما وافت نهاية القرن الثامن الهجرى حتى كان الانتاج العلمى فى أزهى عصوره . وكثر عدد المدارس ومعاهد العلم التى كانت تقوم برسالتها بأمانة وإخلاص بجانب الأزهر الذى لم يكن يستطيع مطاولتها فى المرتبة ، فقد كان نصيبه من الأساتذة والعلماء لا يزال ضئيلا وكانت المدارس قد استأثرت بهم أو بأحسنهم عملا وفضلا . وخلا الأزهر فى تلك الحقبة من أعاظم العلماء المعاصرين أمثال سراج الدين البلقينى والمقريزى وجلال الدين السيوطى الذين كانوا يقومون بالتدريس فى تلك المدارس . على أن الأزهر فى ذلك الزمن لم يفقد ماله من عظيم الهيبة والمكانة ، بل كان لايزال يحتفظ بمكانته العظيمة فى النفوس ، لما كان يلقاه فيه الطلاب من الراحة واتساع الحلقات .

ثم أخذت الحركة الفكرية تضمحل شيئا فشيئا ، فما وافى القرن العاشر حتى كانت المدارس قد تفككت وانحلت بانحلال دولة السلاطين فلم تجد من يرعاها بماله وهباته . فقلت مواردها فهجرها مدرسوها وطلابها .

ومما زاد الحال سوءا ضياع استقلال مصر ووقوعها تحت الحكم العثمانى . فقد قضى سليم شاه على ما بقى فى مصر من حضارة وعلم وفن .

وانتزع منها تحفها وآثارها وكتبها النفيسة ، وسلبها عمالها وعلماءها .
فتلاشت طبقتهم وانحط العلم والتعليم .

ولم يكن نصيب الأزهر من ذلك بأقل من غيره ، فدبت فيه عوارض الانحلال والاضمحلال ، وأهملت فيه دراسة كثير من العلوم . وإن كانت اللغة العربية قد وجدت فيه ملجأ ترتاح إليه وتستكن فيه إلى أن قيض الله لها الظهور والانتعاش بعد انقشاع الحكم العثمانى عن مصر وإن رزحت فيه أمداً طويلا .

* * *

ولنبين بوضوح طريقة التدريس فى الحلقات التى كانت متبعة فى الجامع الأزهر نقول إنه كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة عمود معين من عمد الجامع لا يتعدى عليه أحد وإلا نشب عراك شديد . وكان شيخ المذهب هو المنوط بالدفاع عن العمود ، فإذا تفاقم الخلاف رفع الأمر إلى شيخ الجامع الذى كان الفيصل فى كل خلاف . وكان من عادة شيخ المذهب أثناء إلقاء الدرس أن يجلس على الأرض بجانب العمود مستقبلا القبلة ، ثم استعاض المشايخ عن ذلك بالجلوس على كراسى من خشب أو جريد بعد أن كانت تلك الكراسى من أخص امتيازات شيخ العموم .

وكان الطلبة يجلسون حول أستاذهم على هيئة حلقة . ولكل طالب فى الحلقة مكان لا يتعداه ، وكانت طريقة التعلم إذ ذاك هى الطريقة

الإملائية ، يبتدىء الشيخ الدرس بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبى ، ثم يأخذ فى إملاء الدرس على تلاميذه . وأثناء ذلك يقوم الطلبة بسؤال أستاذهم فيما غمض عليهم . فقد كان عماد الدراسة إذ ذاك المناقشة والحوار بين الطلبة وأستاذهم مما يثقف العقل وينمى ملكة الفهم ، فإذا انتهى الدرس قبل الطلبة يد شيخهم .

ولم يكن للأزهر نظام امتحانات فى عهده البدائى . بل كانت الإجازة التى يعطيها الشيخ لتلميذه ، ولها قيمة عظيمة منذ الأزمان القديمة ، تدل على أن الطالب قد فهم نصاً معينا ، وتجعله أهلا للتدريس . وكان الطالب يتلقى العلم زمنا طويلا ، فإذا أنس فى نفسه القدرة على التصدر للعلم ، أعلن ذلك بين زملائه وشيوخه . فتعقد فى إيوان الأزهر حلقة من العلماء النابهين ، يجلس الطالب فى صدرها ويناقش نقاشاً حاداً فى المادة التى يدرسها وفى جميع المواد التى تجرها المناسبات ، فإذا أثبت الطالب كفاءة ممتازة أعطى حق التدريس .

وكانت المواد الأساسية التى تدرس إحدى عشرة مادة كلها علوم دينية وعربية ، يزيد عليها علم المنطق لمن يمتحن من طلاب العالمية . ونورد هنا مثلا لتلك الإجازات التى كانت تمنح لطلاب الأزهر . فقد جاء فى سند إجازة الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى عام ١١٩٢ هـ ما ملخصه : إنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية : وله تأليف فى كثير منها وهى الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الابماطيق

وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم .

ومن مأثور ذلك الزمن عن علماء الأزهر ، أن العلم مقصود لذاته وأن طالبه يجب أن يتجرد عن ملاهى الدنيا ولا يتطلع لحطامها ، وهو قول كان له قديما أحسن الأثر فى نفوس الأزهريين الذين أحبوا العلم حبا جما ، وقنعوا بما ساق الله إليهم من الرزق ، وعاشوا عيشة راضية يحدوها التقشف والزهد وكانهم موضع احترام الكبير والصغير .

* * *

والتعليم الأزهرى مازال يشكو جموداً ، كان له أثر قوى فى تلك الجامعة الأزهرية ، أعنى به الجمود الذى لازم الأزهر منذ عصوره الأولى وما زال موجوداً به ، رغم المحاولات التى بذلها كثير من المصلحين لرفع شأن الأزهر وإقالته من عثرته وإزالة هذا الجمود . فلم تكن غاية الأزهريين فى الماضى من العلم البحث والتحقيق والتمحيص والموازنة ، إنما دراسة ما نقل إليهم عن السلف فى ذمة وأمانة ، واعتراضهم أن كل جيل يقل عن سابقه ، فعهد الصحابة أقل من عهد النبى الذى هو فى نظرهم العهد الذهبى ، وعهد التابعين أقل من عهد الصحابة ، أما أهل النظر والمجتهدون فقد عاشوا فى زمن بعيد لا نكاد نتبينه فى وضوح ،

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن تاريخ الأمم الإسلامية صادق الدلالة على هذا التدرج فى أنظارهم الدينية .

ونفس هذا التصور يتمثل فى تقديم العلوم ، ففى رأسها توجد العلوم النقلية مثل علم التوحيد والفقه والحديث والتصوف ، ثم تأتى بعدها العلوم العقلية مثل علوم اللغة والعروض والبلاغة والمنطق وعلم الهيئة ، ولم يدرس علم الهيئة إلا لأغراض عملية ، مثل علم التقاويم وتحديد مواقيت الصلاة . ومن العلوم العقلية أيضاً الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضة ، ولكن أهملت دراستها منذ القرون الوسطى ، وإذا درست فإنما تدرس بشكل ثانوى ومن مصادر تافهة . ويقول الطنطاوى الذى كان يدرس فى الأزهر حوالى عام ١٨٢٧م قبل سفره إلى سنت بطرسبرج إنه لا يعرف أحداً قبله ، قرأ فى الأزهر ماقرأه هو من مقامات الحريرى والمعلقات مع شرح الزوزنى . ولم تتأثر الجامعة الأزهرية بالعلوم المدنية التى جاءت إلى مصر من أوروبا فى القرن التاسع عشر وأثرت فيها تأثيراً قويا .

وأخذ القول بحرمة بعض العلوم العقلية يتسرب شيئاً فشيئاً إلى الأزهر كما تسرب إلى غيره من الجوامع الإسلامية الأخرى حتى انتهى الأمر بإهمال تدريسها إهمالا تاما . ويخبرنا الجبرتى بذلك فيقول : إنه تولى حكم مصر عام ١١٦١ هـ أحمد باشا كور ، وكان ولعاً بالعلوم الرياضية ، فلما استقر بقلعة مصر ، قابل صدور العلماء ، ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر فتكلم معهم فى الرياضيات فقالوا (لا نعرف

هذه العلوم) فتعجب وسكت ، وكان الشبراوى يتردد على الباشا يوم الجمعة ، إذ كان خطيب جامع السراى فقال له الباشا ، المسموع عندنا بالديار التركية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) فقال له الشيخ :(يامولاى ، هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف) فقال (وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن بعض العلوم فلم تجيبونى ، وغاية تحصيلكم الفقه والوسائل ، ونبذتم المقاصد) فقال الشيخ : (نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لقضاء حوائجهم ، وأغلب أهل الأزهر لايشتغلون بالرياضيات ، إلا بقدر الحاجة لعلم المواريث) .

واستمر الحال كذلك من إهمال تدريس العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية ، فقد نهى أهل الأزهر عن قراءتها ونسبوا الكفر لمن يطالعها ، وفعلوا ذلك مع جمال الدين الأفغانى عند حضوره إلى مصر عام ١٢٨٨ ﻫ ، وكان قد رأى ما آلت إليه حالة تلك العلوم ، فأوقف جهوده على نشرها ، مستعينا بتلميذيه الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الله وافى الفيومى .

وقد تنبه لتلك الحالة فى الأزهر كثير من الأساتذة والعلماء وكثير من أمراء مصر ووزرائها ، فسعوا إلى إعادة تدريس تلك العلوم ولكنهم خشوا الطفرة ونتائجها ، فتحايلوا باستطلاع رأى بعض كبار العلماء تمهيداً لذلك . فأوعزوا إلى الشيخ محمد بيرم قاضى محكمة مصر حينذاك بمقابلة

المرحومين الشيخ محمد الانبابى شيخ الإسلام والشيخ محمد البنا مفتى الديار المصرية . واتفقوا على أن يفتى لهما الشيخ محمد الانبابى الفتوى الآتية : (ماقولكم رضى الله عنكم ، هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، ولاسيما ماينبنى عليه زيادة القوة فى الأمة ، بما تجارى به الأمم المعاصرين لها فى كل مايشمله الأمر بالاستعداد ، بل هل تجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفائيا على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الإمام حجة الإسلام الغزالى فى إحياء العلوم ونقله علماء الحنفية وأقروه . وإذا كان الحكم فيها كذلك ، فهل يجوز قراءتها مثلما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين وغيرها ؟ أفيدوا الجواب ، لازلتم مقصداً لأولى الألباب) .

فأجابه الشيخ الانبابى بالفتوى الآتية بعد الديباجة :

(يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافيا لأنه لاتعرض فيها لشىء من الأمور الدينية . بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفائيا ، كما يجب علم الطب كذلك ، كما أفاد الغزالى فى مواضع من الإحياء . وإن مازاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة التمكن فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة ، ولا يدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب ومسيرها علم التنجيم المسمى بعلم إحكام النجوم ، وهو الباحث عن الاستدلال

بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية فإنه حرام كما قال الغزالى وعلل ذلك بما محصله أنه يخشى من ممارسة نسبة التأثير للكواكب والتعرض للأحياء بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطىء لخفاء بعض الشروط أو الأسباب عليها لدقتها .

وأما الطبيعيات ، وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها ، وكيفية استحالتها وتغييرها ، كما فى الإحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم . فإن كان هذا البحث عن طريق أهل الشرع فلامانع منها كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لها حينئذ أهمية ثمرتها كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن فى علم الطب ، وكمعرفة علم الآلات النافعة فى مصالح العباد . وإن كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام ، لأنه يؤدى إلى الوقوع فى العقائد المخالفة للشرع ، كما أفاده العلامة المذكور. نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة الممارس للكتاب والسنة للأمن عليه مماذكر قياسا على النطق المختلط بالفلسفة على ماهو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة . ثانيها الجواز مطلقا .... وثالثها المنع مطلقا .....

وأما علم تركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء ، فإن كان المراد به مجرد البحث عن التركيب والتحليل بدون تعرض لما يخشى منه على العقيدة الإسلامية ، فلا بأس به ، بل له أهميته حسب ثمرته . وإلاجرت فيه الأقوال الثلاثة المتقدمة .

وأما العلم المعروف بعلم جابر وسمى أيضا علم الصنعة وعلم الكاف

وهو أيضا الذى ينصرف إليه علم الكيمياء عند غالب الناس ، فقد أفاد العلامة ابن حجر فى شرحه على المنهاج أنه إن قلنا بالمعتمد من جواز انقلاب الجسم عن حقيقته ، وكان العلم الموصل لذلك يقينا ، جاز تعلمه والعمل به ، وإلا حرم ، ولفقد هذا الشرط لم يتحصل المشتغلون به فيما رأينا إلا على ضياع الأموال وتشتت البال وتغيير الأحوال .

نعلم أن العلوم الرياضية لا بأس من قراءتها كما تقرأ علوم الآلات ، وكذلك الطبيعيات وعلم تركيب الأجزاء حيث كانت تقرأ على طريقة لا يفهم منها منابذة الشرع بحال كبقية العلوم العقلية مثل المنطق والكلام والجدل . بل يجب كفاية من هذه الثلاثة ما يحتاج إليه فى الحجاج عن العقائد الدينية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

غرة الحجة ١٣٠٥ هـ　　　　محمد الإنبابى الشافعى

خادم العلم والفقراء بالأزهر ، عفى عنه .

وكتب العلامة الشيخ محمد محمد البنا مفتى الديار المصرية الفتوى الرسمية الآتية رقم «١٧١» ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا وما استظهره من أن الخلاف الجارى فى علم المنطق يجرى فى علم الطبيعة أيضا وجيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

١٧ ذى الحجة ١٣٠٥هـ　　　　الفقير محمد محمد البنا الحنفى ، غفر له

وهذه الردود نفسها تشف عن جهل رؤساء الأزهر فى ذلك العهد بهذه العلوم وعن عداوتهم لها ، والريبة فيها ، ولكن الجهر هكذا بوجوب إدخالها الأزهر ، برهان ساطع على أن روحا جديدة قد ابتدأت تجتاح

الأزهر فى ذلك الوقت وإن كان دخول تلك العلوم لم يتم إلا فى عصر الخديو عباس الثانى .

أما فى تلك الحقبة من الزمن فقد كانت أهمية كل علم من العلوم تقف لا باعتبار قيمته الموروثة ، بل باعتبار شيوعه وإقبال الطلاب عليه ، فإننا نرى أن أعلاها مرتبة هو علم الفقه لأهميته فى الحياة العملية ولكثرة الوظائف التى يؤهل لها .

كما عظم إقبال الطلبة على علوم اللغة والبلاغة ودروس المبادىء التى كانت تخصص للناشئة من الأغراب والأجانب ، وكان أهم العلوم دراسة هو علم الكلام أو التوحيد ويليه تفسير القرآن والحديث الشريف

وكان لمذاهب الشيعة الكبيرة دائما أثر كبير فى الأزهر وبخاصة فى إدارته ، فقد أخرج الشيعة منذ أيام الفاطميين ، أما الحنابلة فلم يعين واحد منهم شيخا لقلة عددهم وضعف نفوذهم ، وكان للمالكية الذين يعيشون غالباً فى صعيد مصر وفى بلاد الدلتا مقام كبير محترم وإن قل منهم من تولى مشيخة الأزهر ، ولم يعملوا قط على الاحتفاظ بالنفوذ الذى يخوله لهم كثرة عدددهم فظلت المنافسة محصورة دائما بين الشافعية أتباع المذهب القومى وأتباع المذهب الحنفى الذى كان مذهب الباب العالى وأتباعه التتر والقوقاز والترك والذين كانوا ذوى نفوذ كبير عدة قرون . وهذا الخلاف استغله الحكام لبسط نفوذهم على البلاد ولتحويل الأزهريين الذين كانوا يتقربون إليهم إلى المذهب الحنفى .

وقد قامت بين رجال الدين والمتصوفة كثير من المشاحنات هددت

مراكز رجال الدين فى كثير من الأحيان. وإن كان المتصوفة قد تعرضوا لمهاجمات شديدة من رجال الدين عند ما كان المتصوفة يحاولون تجريح آراء رجال الدين أو تعطيل أصول بعض العقائد . وكانت الغلبة فى النهاية لرجال الدين ، وإن تركوا الصوفية أحراراً فى الاشتغال بالتصوف ورسومه ومناسكه عائشين عيشة وادعة يلطفها الزهد .

ولم يكن بالأزهر حتى آخر العقد الأول من القرن العشرين قانون يضبط أوقات الدروس وعدد الحصص اليومية ولكن جرت العادة من زمن قديم أن تكون كما يلى :

بعد الفجر : التفسير والحديث ، بعد الشروق : الفقه ، بعد الظهر : النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والأصول ، بعد العصر : الحساب والتاريخ والجغرافيا وسائر العلوم الحديثة ، بعد الغروب : المنطق وآداب البحث والهيئة .

ومدة الدرس عادة ساعة أو ساعتان وأغلب الطلبة يتلقى كل منهم درسين صباحا ودرسين مساء ، وبعضهم يتلقى أكثر من ذلك وبعضهم أقل حسب نشاط كل منهم وعدد العلوم التى يرغب فى تلقيها .

نهضة الأزهر

كان غزو العثمانيين لمصر ذا أثر كبير فى المدنية الإسلامية ، وكان أشد نازلة أصابت العلوم والفنون التى كانت متألقة فى سماء العالم الإسلامى أجمع . واستمرت مصر فى غيبوبة تلك الصدمة زهاء الثلاثة قرون . ففى مدة الثمانية أشهر التى قضاها الفاتح سليم فى مصر ، سلب البلاد جميع نفائسها وآثارها وكتبها ومؤلفاتها الخطية لأعلام فقهائها مثل ابن إياس والمقريزى والسخاوى والسيوطى كما أرسل إلى بلاده أمهر العمال والفنانين والكتاب فى مصر فانحط معيار الثقافة فيها ورسفت الحركة الفكرية فى الأغلال .

ولم يكن الأزهر أقل من غيره تأثرا بتلك الحركة فقل فيه العلماء النابهون وانعدم الانتاج الفكرى والأدبى وأهملت فيه دراسة العلوم الرياضية إهمالا تاما .

ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن الأزهر قد بذل مجهوداً جباراً فى الاحتفاظ بمكانته التليدة وهيبته العظيمة حتى فى نفوس الغزاة أنفسهم ، فترى الفاتح سليم يؤدى له الزيارة مراراً ، بل كان حكام مصر الأتراك

يلجأون وقت الشدة إلى علماء الأزهر وشيوخه يلتمسون منهم العون والمساعدة عند شبوب الثورات أو قيام الفتن .

كما أننا لا نغفل حقيقة واقعة هى أن اللغة العربية ، استكنت داخل الأزهر طيلة الحكم العثمانى لمصر ، ثم ابتدأت بمجرد انقشاع ذلك الحكم فى الظهور والنمو . فقد استمرت مصر ملاذا لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية ، يؤمه هؤلاء الطلاب من جميع البلاد الإسلامية . وهكذا استطاع الأزهر منذ أوائل القرن التاسع عشر أن يحيا حياة جديدة . وكانت مهمة الأزهر تلك فى الاحتفاظ باللغة من الصعوبة بمكان . بل يعتبرها المؤرخون أعظم ما وفق الأزهر لإسدائه من خدمات لعلوم الدين واللغة والفقه خلال القرون الثلاث المظلمة ، بل لعلها أعظم ما قام به الأزهر منذ إنشائه إلى الآن .

وقضت حملة نابليون عام ١٧٩٨ م على الحكم التركى فى مصر ، وعلى الرغم من أنها لم تستمر فى مصر أكثر من عامين إلا أنها تركت أثراً عميقاً فى جميع النواحى العقلية والعلمية . فقد ضمت الحملة العلماء والأطباء والمهندسين . خلفوا لنا بعد أن بارحوا الأراضى المصرية كثيراً من الأبحاث والدراسات كانت دعامة لمن أتى بعدهم من الباحثين فأنشأوا معامل كيميائية ورسموا خرطا جغرافية وعملوا أبحاثا طبية ، لمس فيها علماء مصر ومفكروها مظاهر حضارة جديدة لم يعرفوها من قبل . كما أحضرت الحملة ، المطبعة وأنشأت الصحف والمدارس والمكتبات العامة وعنيت بالفنون الجميلة والبحث عن الآثار القديمة

فيقظ فى الناس الشعور بحاجتهم إلى التهذيب الخلق والرقى الفكرى والعلمى ثم إلى الاستقلال الذى شغلوا به فى هذا العهد الحديث .

فلما جاء محمد على باشا الكبير وجه عنايته إلى التعليم العملى وحمل الناس عليه حملا ، ولم يكن فى مصر كلها فى ابتداء عهده معهد محترم إلا الازهر حيث كانت تدرس العلوم اللغوية والدينية بذلك الأسلوب العتيق ، وإلا تلك (الكتاتيب) المنبثة فى القرى حيث تحفظ القرآن وتدرس الكتابة والقراءة بالرهبة لا بالرغبة . وحول ذلك جهالة منتشرة وخرافات ذائعة .

حاول محمد على أن يقيم بناء جديدا للحكم الجديد مسترشدا فى ذلك بالأفكار الأوروبية ، ولم يغفل الأزهر بل جعله موضع عنايته ورعايته فاحترم علماءه وقربهم منه . على أنه لم يكن فى مقدوره الاحتفاظ للازهر بمقام خاص ، فقد كان رجل عمل ينشد الإصلاح ويعمل له ، وكانت الروح التركية قد طغت على الروح العربيــة وأطفأتها ، وظل المصرى المظلوم عهداً طويلا يمقت استبداد الترك به ، فأدرك محمد على بذكائه وفراسته أن الأزهر فى وضعه الحالى لا يتفق مع الروح الجديدة التى ابتدأت تشع فى نفوس المصريين ولا مع آماله فى أن يجعل مصر دولة عظيمة فتية أوروبية .

وقد اضطرت الحكومة فى عهد محمد على إلى الاستيلاء على أملاك الأزهر الواسعة وذلك لمصلحة الدولة على الرغم من أن هذه الممتلكات كانت وقفا لا يجوز التصرف فيه ، فأضر هذا العمل بالأساتذة والطلاب

ضرراً ليس بالقليل .

وما وافى عام ١٨٢٦م ، حتى كان محمد على قد نجح فى إرسال عشر بعثات علمية متوالية إلى باريس ولندن وڤينا ، بلغ عدد طلابها ثلاثمئة صرف عليهم ما يزيد على نصف مليون من الجنيهات واختار أعضاء تلك البعثات من صفوة طلبة الأزهر . فتلقوا العلم هناك على أحدث طريق وأرق أسلوب ودرسوا القانون والعلوم السياسية واللغات والهندسة والطب والكيمياء والرياضيات والفنون العسكرية والفنية وذلك فى وقت أهمل الأزهر فيه دراسة كثير من المواد الهامة كالرياضيات والحساب والتاريخ والجغرافيا والطبيعة .

وهكذا نشأت بمصر طبقة من المفكرين والعلماء والأدباء ، أخذوا قسطا وافراً من العلوم الحديثة . إذ ما كاد هؤلاء يعودون إلى ديارهم حتى عادت تلك العلوم الهامة إلى مكانتها السابقة بين العلوم التى يهتم الأزهر بدراستها ، بل أصبحت الطريق الوحيد أمام دارسها ليصل إلى الشهرة ومناصب الدولة الرفيعة ، فانتعش الأزهر ونفض عن نفسه ثوب الخمول والركود الذى لبسه طيلة الحكم العثمانى . وأخذت الكتب الأووربية عامة والفرنسية خاصة تترجم إلى اللغة العربية وتدرس بإمعان فى الأزهر وإن اضطر أولى الشأن إلى ابتكار كثير من الألفاظ الجديدة والاصطلاحات الحديثة والأساليب العصرية التى كان الأزهريون يسخرون منها ويهزأون .

ولم تقتصر جهود محمد على على إرسال البعثات إلى الخارج والعناية

بما يدرس بالأزهر ، بل أنشأ الكثير من المدارس الخاصة كالطب والهندسة والألسن والفنون والصنائع وكثيرا من المدارس الابتدائية والتجهيزية ، فأضر ذلك بالأزهر ضررا بليغاً . فنافست تلك المدارس الأزهر منافسة قوية وحولت عنه كثيراً من طالبي العلم .

وكان الأزهريون يعتبرون كل من عاد من أعضاء البعثات الأوروبية سفيها متكلفا . وهذه الخصومة التي قوى أمرها أيام الطنطاوى عام ١٨٣٠ م ، ظلت قائمة إلى وقتنا هذا على الرغم من التغييرات الكثيرة التي طرأت على الأزهر من عهد محمد على إلى عصرنا الحالى ، فقد ظل الأزهريون يسخرون من المصريين الذين تعلموا فى أوروبا ويقولون عنهم إنهم تعلموا تعليما سطحياً .

وظل الحال على هذا المنوال فى عهد إبراهيم باشا وعباس الأول وسعيد باشا ، إلا أن حركة الإصلاح كانت قد فترت وظهرت فكرة الجمود والاستبداد فى الحياة العلمية والأدبية والفكرية ، فقدكان عباس باشا لا يهتم كثيراً بشئون التعليم وإن الأزهر حظى ببعض زياراته ، إلى أن حدث الانقلاب الكبير فى عهد إسماعيل العظيم .

وربما كان إسماعيل مدفوعا إلى هذا الانقلاب بتلك النزعة القوية التى كانت تختلج فى نفسه والتى كانت ترمى إلى إقامة دولة عربية مصبوغة بالصبغة الأوروبية مكان تلك الدولة التى تتألف من رعية عربية وراعى عثمانى .

وكان لا بد لتحقيق أغراضه ، من إصلاح الأزهر إصلاحا يتفق

والآراء الجديدة . فقام إسماعيل بتأييد الشيخ محمد العباسى المهدى الحنفى شيخ الجامع الأزهر وكان فقيها ذكيامستنيرا واسع الخبرة ، بإصدار قانون للأزهر ، كان الغرض منه رفع مستوى الأساتذة والمجاورين ، ولما كان قضاة المحاكم الشرعية ومفتوها يعينون من العلماء ، مست الحاجة إلى العناية بمتخرجى الجامع الأزهر . وكان نظامه قد أخذ فى الانحلال سنة بعد سنة لأسباب تكاد تكون طبيعية ، مرجعها تطور الهيئة السياسية . وتبدل أحوال الأمة رويدا رويدا ، وفقدان قاعدة الرقى المناسب لهذه الحالة فى الجامع الأزهر . حتى ادعى العلم من ليس من أهله وتظاهر بطلبه كل فار من خدمة الجيش ، فشوهد فيه تلاميذ يربو سنهم على الستين وعلماء لايعرفون من العلم إلاأسماء العلوم ورأى الشيخ محمد العباسى شيخ الجامع وجوب وقاية العلم وأهله من هذا البلاء المقبل فوضع قانونا للتدريس وصدرت بإنفاذه إرادة سنية بتاريخ ٢٣ ذى القعدة من عام ١٢٨٧ هـ (٣فبراير عام ١٨٧٢م) قضى هذا النظام :

١) أن يكون نيل العالمية بالامتحان على يد لجنة من العلماء يختارهم شيخ الجامع

٢) وأن ينقسم العلماء إلى ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة

٣) وأن يصدر بذلك بيور ولدى عال

٤) وأن يمتاز أرباب الدرجة الأولى بكسوة تشريف ينعم بها من لدن الجناب العالى

٥) وأن العلوم التى يمتحن فيها الطلاب هى :

الفقه – الأصول – التوحيد – الحديث – التفسير – النحو – الصرف – المعانى – البيان – البديع – المنطق

وأراد الشيخ العباسى المهدى بهذا القانون أن يبعد عن الأزهر العناصر التى لاتتميز بالكفاءة والجدارة . وكان لابد من تحسين حال الأساتذة بتقرير رواتب ثابتة لهم .

وتأثرت تلك الإصلاحات بالأفكار الأوروبية ، وعلى وجه أدق بالآراء الفرنسية التى تبدو فى برامج الدراسة وفى تقرير أداء الامتحان عند التخرج ، وكان هذا أمراً جديدا بل حدثا بالنسبة للأزهر . وقد ألفت لجنة من ستة أعضاء وعينت المواد التى يجب أداء الامتحان فيها وتقرر للطلاب مكافآت دراسية . وأخذ التنافس والتشاحن على الأمور التافهة يقل بعد أن كان شائعاً بين جميع الطوائف الأزهرية .

والحق أن عصر إسماعيل كان عصراً ذهبيا فى تاريخ الأزهر ، فقد تفتحت فيه ثمار النهضة الجديثة وابتدأ الأزهر يفيق من سباته الطويل ويتطلع بدوره إلى فهم الروح الجـــديدة وإن كان ببطء . وكان للسيد جمال الدين الأفغانى أثر كبير فى إنماء هذه النهضة ، فقد كان لحلقاته الشهيرة التى كان يشرح فيها كثيراً من علوم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق بأسلوبه العصرى المبتكر أثر عظيم فى نفوس من استمع إليه فى ذلك الحين من طلاب الأزهر وشيوخه .

وما أن صدر قانون إسماعيل ، حتى سميت علوم الأزهر (العلوم الإحدى عشر) ومضى الأزهريون على ذلك حوالى ربع قرن . فتمكنت

من قلوبهم عقيدة أنه لا علم غير العلوم (الإحدى عشر) وما كانوا يدرسون شيئاً من السيرة النبوية والأخلاق الدينية وحكمة التشريع ومصطلح الحديث ، ولا يتعلمون الخط والاملاء والانشاء والتوثيقات الشرعية والهيئة والميقات وآداب البحث وآداب اللغة مما هو من ضروريات الأزهريين. وهنا علة تمسكهم السابق بهذه العلوم دون غيرها. ومعارضتهم إضافة أى علم آخر إليها وتسميتهم محاولة ذلك تهجما على الدين وموجبا لزعزعة العقيدة كما سموا ماعدا العلوم (الإحدى عشر) العلوم الحديثة . والواقع أنها لم تكن كذلك ، بل كانت هى وغيرها تدرس بالأزهر إلى عهد ليس ببعيد ، وأن منهم من حضر عهد دراسة هذه العلوم .

وكانت الشهادة التى تعطى للعالم فى نهاية دراسته تكتب فى المعية السنية متوجة بختم الخديو ، كما يخلع عليه الخديو فرجية وشريطا مقصبا يجعله فى عمامته فى مواضع تشريف ، ويكتب للجهات باحترامه وتوقيره ويعطى تصريح بركوب القطار بنصف أجر ، ولم يكن يسمح بالامتحان إلا لستة طلبة ، فإذا ازداد العدد يرجح منهم من امتاز بالشهرة أو الوجاهة أو كبر السن .

ولكن الظروف كانت أشد من المصلحين قوة بعد أن ابتدأ الأزهر يصيب أول قسط من الإصلاح ، فقد قامت بالأزهر طائفة المتزمتين ، أعداء كل إصلاح وتجديد برئاسة الشيخ المالكى محمد عليش ، وأقاموا

أنفسهم خصما عنيدا للشيخ العباسى وأخذوا يقاومون ويهاجمون تلك الاصلاحات العظيمة . ولم تكن تلك الفئة لتستطيع نجاحا مع رجل كالخديو إسماعيل لولا تلك المحن الاقتصادية والسياسية وما أعقبها من تدهور مالى سريع . ثم احتلال الانجليز مصر عام ١٨٨٢ م وغير ذلك من أسباب التقلقل والاضطراب . ففترت حركة الاصلاح بعض الوقت .

على أن توفيق باشا وعباس باشا الثانى الذين خلفا إسماعيل باشا ، لم يضنا على الأزهر بالرعاية والعطف وعمل عباس باشا كل ما فى وسعه لتحقيق الاصلاح المنشود ولكنه تصادم بدوره مع جماعات المحافظين .

على أنه من السهل أن تدرك أن إصلاح الأزهر — أى إدخال الأفكار الحديثة إليه — لم يكن من المستحيلات بل كان فى المستطاع تحقيقه فى تدرج وبطء . فلم يخل الأزهر من أفراد مستنيرين وإن كانت الأغلبية فيه لم تكن ترض بالتجديد ولا تقبله . وإذا كانت أكثر المعاهد المصرية الأخرى قد تأثرت بالآراء الأوروبية ، فقد ظل الأزهر وحده بعيدا عن التأثر فخورا بذلك الاعتزال . على أنه يجب أن لا تخدع فى فهم الروح التى كانت تسوده ، فقد كان أبطال النظام القديم يعتبرون الاصلاحات القليلة التى أدخلت على الأزهر مدنسة لحرمة هذا المكان المقدس . فهم يفسرون الإصلاح بأنه محاولة للاحالة بين الأزهر وبين ما كان له من شرف ومجد . ولما هدد رجال المهدى وادى النيل عام ١٨٨٤ م ، كان الأزهريون يعطفون عليهم كل

العطف . وعند ما أراد رجال الشرطة المصريون بقيادة بعض الأوربيين أن يدخلوا الأزهر فى ٧ يونيو عام ١٨٩٦ م للتحقق من تنفيذ بعض الاحتياطات الصحية التى اقتضاها انتشار الطاعون، اعتدى عليهم المجاورون ورموهم بالحجارة والخشب والأوانى وغير ذلك وأكرهوهم على الانسحاب .

وكان المجاورون الشبان الذين تأثروا فى آرائهم الدينية بما تلقنوه عن شيوخهم — يعتقدون اعتقادا قويا أن القذارة لا تفارق البركة — وأن من التمسك بالدين مقاومة انتهاك حرمة الأزهر حتى فى دورة مياهه وقام المجاورون لمثل هذه الأسباب بفتنة كبيرة عام ١٩٠٩ م .

محمد عبده والأزهر

كان المصلح الكبير الامام الشيخ محمد عبده يرى أن بقاء الأزهر على حاله محال وأنه إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . فقد كان الامام فى مقدمة الرجال العصريين الذين لهم أثر كبير ملموس فى إصلاح الأدب والدين والسياسة والاجتماع ، سواء أكان ذلك فى مصر أم فى العالم الاسلامى ، وإذا كنا نشعر اليوم بحركة إصلاحية فى الأزهر والمعاهد الدينية والمحاكم الشرعية ودور العلم حيث تتصل الحياة الدينية بالحياة المدنية ، فالامام واضع أساسها متأثرا فى ذلك أستاذه العظيم السيد جمال الدين الأفغانى الذى بث فى المصريين روح التجديد والاصلاح وحرك فيهم عاطفة الوطنية مستعيناً فى ذلك بكثيرين من تلاميذه المبرزين على العمل والكتابة وإنشاء الفصول فى الصحف ، وسهل لهم أمر الخطابة فى المحافل ، كما كان يعقد لهم فى بيته المناظرات الفلسفية والفقهية والدينية والأدبية ، فنهزا فرصة تلك الاجتماعات لنشر تعاليمه التى كانت تحض على التوفيق بين الاسلام والمدنية والرجوع إلى المصادر الأولى للتشريع الاسلامى وشرحها شرحا معقولا

خالياً من الخرافات والأساطير ، ثم الميل إلى تحرير الفكر والعناية بالعلوم الفلسفية والأساليب الغربية . فتركت تلك التعاليم روحا إصلاحية استطال أثرها إلى يومنا هذا .

كان محمد عبده طالباً بالأزهر صغير السن يوم أن عرف أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وسرعان ما افتتن به ولازمه كظله ، بعد أن صادفت تعاليم الأفغانى من نفس الأزهرى الصغير أرضاً خصبة . فأخذ عنه كل مبادئه وأغراضه . ثم أصبح وهو مازال طالباً يقرأ دروساً فى الأزهر على أسلوب أستاذه ، موضوعها التوحيد والمنطق والحكمة والفلسفة . وكان يؤم تلك الدروس الجم الغفير من العلماء والمجاورين ، فيرون كتباً جديدة وروحاً جديدة وأسلوبا جديداً ، فيه بلاغة وحرية فكر ، وهنا ظهر الاصطدام بين مذهبين ، مذهب الأزهر القديم الذى كان ينادى به الشيخ عليش ، ومذهب محمد عبده وأستاذه ، يجهر به هذا الطالب موفقا قادراً يبهر به النـاس . كما ظهرت للشيخ الامام المقالات الصحفية فى التصوف والتوحيد الممزوجين بالحكمة والفلسفة والمنطق، لفتت إليه الأنظار فعضده الكثير من الطبقة النابهة . وشجعوه على كتابة المقالات الدينية والأدبية والاجتماعية كلها تدعو إلى إدخال العلوم العصرية فى الأزهر . ولما بلغ الثامنة العشرين تقدم لامتحان العالمية ، فنالها عام ١٢٩٤ هـ بعد تلكؤ العلماء وتبرمهم به لعلمهم بنزعته التجديدية وتأثره بآراء جمال الدين الأفغانى ، وكلاهما ثائر فى وجه الجمود ، داعية إلى حرية الفكر وإن اختلف الامام

مع أستاذه فى طريقة الإصلاح .

فكان الأفغانى يرى أن خير وسيلة لهذا الاصلاح إنما هى الحكومة ، تفرضه فرضاً على الشعوب ليكون ألزم وأسرع ، ولكن الامام كان يرى التربية وإعداد الأمة للإصلاح خير وسيلة قويمة ثابتة ، فهناك فرق كبير بين فرض الأمور فرضاً على الأمة دون استعداد لها ، وبين إعدادها وتثقيفها حتى تشعر بحاجتها إلى الاصلاح وتطلبه لنفسها فى شغف واشتياق ، وأحرى بالأمم فى الحالة الأولى أن تثور وتهدم فى طرفة عين مابنته الحكومة على غير أساس ، كما يحدث دائماً فى الشرق . لذلك نجد الامام يحاول إصلاح الأزهر أولا ، فإصلاحه إصلاح للأمة وضمان لمستقبلها ، فتناول فيه الناحية الإدارية والصحية والخلقية .

وجد الامام أن الأزهر قد أضحى معدوم النظام مضطرب الادارة ، فلم تكن هناك قواعد ثابتة لتوزيع المرتبات والجرايات ومنح كساوى التشريف ونيل بقية امتيازات العالمية . وكان اختلاف المذاهب فيه سبباً فى عدم استقرارها . فما وافت أوائل محرم عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) حتى اشتدت فى الأزهر نفسه حركة استياء عامة شملت الأساتذة والطلاب . فاضطر فريق من العلماء إلى رفع عريضة إلى سمو الخديو يعرضون فيها حالة الأزهر وما وصل إليه من اضطراب وسوء إدارة ويلتمسون وضع حد لهذه الفوضى التى كانت تضرب أطنابها فيه فى ذلك الحين . فصدرت إرادته السنية بالقانون المعروف بقانون عام ١٨٩٥ م ومن ذلك التاريخ دخل الأزهر فى طور جديد .

ولا يمكننا أن ننكر فضل الامام محمد عبده فى إخراج هذا القانون إلى حيز الوجود . ففى حكم الخديو توفيق بذل مجهودا كبيراً فى إقناع الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع فى ذلك الحين بأن يوسع منهاج الدراسة بالجامع وأن يدخل بعض العلوم الحديثة على منهاج التعليم فيه . ولكن شيوخ الأزهر عارضوه معارضة شديدة فحاول أن ينال تأييداً من الخديو ولكنه لم ينل منه عطفا كافياً .

فلما ولى الحكم عباس باشا الثانى ، حاول أن ينجح معه حيث فشل مع سلفه ، فرفع إليه تقريراً مسهبا عن الأزهر وطرق إصلاحه فصادف ذلك التقرير رضاءاً عاليا من سمو الخديو فأصدر القانون السالف الذكر فى ١٧ رجب عام ١٣١٢هـ (١٥ يناير سنة ١٨٩٥م) فألف مجلس لادارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة ، ومثل الحكومة فيه الشيخ محمد عبده نفسه وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان دون أن يكون لشيخ الجامع ولمجلس إدارته رأى فى انتخابهما .

وعلى الرغم من أن الإمام كان مؤيدا فى آرائه الاصلاحية من الخديو وحكومته ، فقد أراد ألا يعمل أى تغيير فى الأزهر إلا برضاء شيوخه .

كانت المرتبات تؤخذ من أوقاف الأزهر وأوقاف وزارة الأوقاف الخاصة بالأزهر ومن إعانات رتبها أمراء مصر على التوالى للعلماء بالروزنامجة ومن أوقاف المحسنين . ومع ذلك فقد وجد الإمام أن معظم العلماء لايتناولون راتبا من الأزهر ، بل يعتمدون على ماينالونه من جراية أو

يصيبونه من طلبة حلقاتهم أو ما ينالونه من أجر مقابل إعطاء بعض الدروس الخاصة فى المنازل ، وكان تقسيم المرتبات الناتجة من الأوقاف موكولا إلى إرادة شيخ الجامع . وقد أدى التزاحم على نيل نصيب منها والرغبة فى إرضاء العدد الأكبر من العلماء ، إلى تجزئة المرتبات أجزاء صغيرة بحيث أن بعضها لم يتجاوز مئة قرش فى السنة كلها ثم ستة عشر قرشاً فى كل شهر ، ولم يبلغ مرتب عالم ستمئة قرش وهو النادر ، فإذا انحل مرتب لموت صاحبه ، تسابق أهل المرتبات بقسمته بينهم . وكان الإعطاء يتبع قوة المعطى إليه ، وكان الحرمان يؤثر فى نفس المحروم أثراً يبعثه على الشكوى الدائمة ، فحدد قانون عام ١٨٩٥ لجميع العلماء رواتب ثابتة شهرية وفقا لدرجاتهم فى العالمية . فسعى لدى الحكومة حتى خصت الأزهر فى ميزانيتها بمبلغ ألفى جنيه سنويا .

واهتم الامام بمسألة الجرايات التى كانت سببا من أسباب الفساد والمشاجرة بين المجاورين وشيوخهم ، فنظم توزيعها . وقضى برجوع مرتب المتوفى إلى ابنه إن كان له ابن . واشترط لذلك شروطا منها أن يحفظ القرآن إن كان صغيراً وطلب العلم إن بلغ الخامسة عشر . ونص على أن كل مرتب من الأوقاف لعالم من الأزهر يصبح بموت صاحبه حقا للجامع تجرى عليه أحكام المرتبات . وأن المرتبات التى بشرط واقف تتبع فيه شروط الواقفين . غير أن استحقاقها وتحقق الشروط فيمن يطلبها يكون من خصائص مجلس الادارة . وقضى أن يعود إلى الأزهر مرتباته الأصلية التى خرجت منه لأفراد معينين بأوامر عالية ،

متى مات أربابها ، وقد أجاز كذلك الجمع بين المرتب ونصيب الشيخ من الأوقاف والجراية ، إلا أنه جعل المرتب مستحقاً لافادة الطلبة فلا يتناوله غير مدرس ، إلا فى أحوال نادرة ، وهى خطوة كبرى وضعت حداً لفكرة أن الأزهر أشبه بتكية يعيش فيها من لا عمل له .

واستصدر الإمام قانون كساوى التشريف التى كان يلبسها العلماء فى مناسبات معينة تميزهم عن غيرهم ، فصارت تعطى لمستحقيها بمراعاة الأقدمية وغيرها من المؤهلات ، وكان الرأى فيها من قبل لشيخ الجامع يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، والأصل فى هذه الكساوى أن أكابر العلماء وبعض مشايخ الحارات من أهل الحسب والنسب كانوا يزورون ساكن الجنان محمد على باشا الكبير فى قصره فى أول يوم من رمضان تبريكا بحلول شهر الصوم ، فيخلع عليهم خلعاً هى الكساوى المذكورة وبعد وفاته تنوسيت تلك العادة إلى زمن الخديو إسماعيل فأحياها . ثم اهتم الامام محمد عبده بتنظيمها ، فصدر أمر الخديو عباس الثانى ، بربط بدلها نقوداً باسم طائفة أهل العلم بالجامع الأزهر على الدوام .

وعنى الإمام كذلك عناية كبيرة بشئون الأزهر الادارية ، فابتنى مكاتب قريبة من الجامع يقوم بالخدمة بها عدد من الكتاب لمعاونة شيخ الجامع ، بعد أن كان الشيخ فى الماضى يدير الأزهر من منزله حيث كان المدرسون والمجاورون يجتمعون إليه ، تاركا أمور الأزهر العادية الهامة فى يد كاتبه الخاص يبت فيها كما يشاء فيستبد ويظلم .

وقد نالت مسألة مساكن المجاورين كثيراً من عناية الإمام وعطفه ،

فقد كانت الأروقة مزدحمة بساكنيها من الطلاب ، لاتتوفرفيها الشروط الصحية والنظافة ، فجدد أثاثها وأوصل إليها المياه الصالحة للشرب والوضوء ، وحول قناديل الزيت الضعيفة الضوء إلى مصابيح قوية تضاء بالبترول . كما عين طبيباً خاصاً للأزهر ومجاوريه وأنشألهم صيدلية مجانية داخل الأزهر ، كما أنشأ لهم مستشفى خاصا بهم فيما بعد .

ولاحظ أن الجراية التى تصرف للمجاورين ليست كافية لغذائهم مما سهل انتشار الأمراض بينهم فأقعدت معظمهم عن تلقى الدروس . فسعى حتى رفع الجراية من خمسة آلاف رغيف يوميا إلى خمسة عشر ألفا . ونظم إدارة الأوقاف المحبوسة على الأزهر وكانت تحت أيدى أساءت استعمالها ، فارتفع إيرادها من أربعة آلاف جنيه إلى أربعة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين من الجنيهات .

وابتدأ فى توجيه عنايته إلى المسألة ذات الأهمية القصوى لديه وهى مسألة التدريس فى الجامع . فألف لجنة من ثلاثين عالما من علماء الأزهر لتكتب تقريرآ مسهبا إلى مجلس الادارة عن العلوم التى تدرس فى الازهر بالفعل وعن العلوم التى ترى أنه يجب إضافتها إليها ليكون التعليم فيه على أحسن صورة فعينت اللجنة علوم المقاصد وعلوم الوسائل وأضافت إلى علوم الوسائل الحساب والجبر وتاريخ الإسلام والإنشاء ومتن اللغة وآدابها ومبادى الهندسة وتقويم البلدان . وألزم طالب الامتحان للحصول على شهادة العالمية ، أن يمتحن فى علوم المقاصد وعلوم الوسائل والحساب والجبر ، وحتم القانون أن يجنب الطلاب فى السنين الأربع

الأول قراءة الحواشى والتقارير المطولة ، وأن يفرغوا لتحصيل جواهر العلوم الدينية بطريقة سهلة التناول ، ثم اشترط فيمن يقبل للامتحان أن يكون قد أمضى مدة اثنى عشرة سنة ضمن الطلبة على الأقل ، وفى حالة ما إذا كان الطالب الممتحن حنبليا ، نص على أن يكون فى هيئة ممتحنيه عضو حنبلى أو أكثر .

وكان متوسط عدد الذين يتقدمون للامتحان ثلاثة فى العام ولم يتجاوز عددهم الستة فى أى عام من الأعوام ، فزاد بعد القانون إلى خمسة وتسعين ، نجح نحو ثلثهم .

ثم حدد القانون أوقات الأجازات الدراسية وقصر أجلها ، فأصبحت شهور العمل ثمانية بعد أن كانت أربعة .

وخشى بعض العلماء أن تحول العلوم الحديثه بين كثرة الطلاب وتحصيل العلوم القديمة المتداولة ، فعقد الشيخ الإمام إجتماعا ليظهر أن نسبة الناجحين من الطلاب الذين درسوا العلوم الحديثة والعلوم القديمة ، أكبر منها فى أولئك الذين قصروا همتهم على دراسة العلوم القديمة وحدها .

ثم تبين له أن مكتبة الأزهر كانت فى أسوأ حال من الاهمال وسوء الانتفاع ، بل كانت فى الواقع لا وجود لها ، كانت كتبها موزعة مشتتة فى الأورقة المختلفة ، وكان أكثرها فى حال يرثى لها ، وتسرب كثير من كتبها القيمة إلى أيدى الغربيين ، وبيعت نفائسها إلى باعة الكتب بالثمن البخس . فجىء بهذه الكتب من مخابئها محشوة فى الغرائر والمقاطف

ثم رتبت ووضعت فى المكتبة . ونظم مابقى منها فى الأروقة المهمة ، وعنى بها عناية تامة ، ثم أنشئت كذلك مكتبات فى المعاهد التى ألحقت بالجامع الأزهر ، كالجامع الأحمدى والدسوقى ومعهد دمياط والأسكندرية وأصبحت تخضع لقانون الأزهر ونظامه ، فنالت نصيبها من الإصلاحات التى أدخلت على المعهد الرئيسى .

وأمل الأستاذ الإمام فى أن يتخذ من الأزهر مركزا لحركة إصلاحية ونهضة عقلية فى البلاد كلها فعاد إلى التدريس فى الأزهر بعد أن تركه مدة طويلة وألقى به كثيرا من دروس التوحيد وتفسير القرآن والبلاغة والمنطق .

وينبغى أن نشير هنا إلى ما أبداه الشيخ الإمام محمد عبده فى عظيم الاهتمام بإحياء اللغة العربية وأساليبها الفصحى . وقد استعملها فى دروسه وخطبه وأحاديثه فى الأزهر وسعى لتخصيص مبلغ مئة جنيه من ديوان الأوقاف لأحد العلماء لتدريس هذه اللغة فى الأزهر .

وكانت الناحية الخلقية مشكلته ، يعالجها بالتدريس والمناقشة وتعهد الطلبة وحملهم على الفضائل والسعى لهم ولجميع اللاجئين إليه فى أسباب السعادة والخير ، وكثيرا ما كان قدوة صالحة بتضحية مرتباته وراحته لهم .

ومع أن الشيخ الإمام قد بذل جهداً كبيراً فى تحقيق هذه الإصلاحات فإن مقدار ما وفق إليه من نجاح لم يكن مناسبا مع عظمة أغراضه ، فقد أدرك جزءاً منها وقد اضطر فى ١٩ مارس عام ١٩٠٥ إلى الاستقالة من الأزهر لتغير الخديو عليه ولشدة مالاقاه من معارضة بعض

الأزهريين الرجعيين . كما استقال معه صديقه الوفى الشيخ عبد الكريم سلمان وعضو آخر هو السيد أحمد الحنبلى .

غير أن قوة النزوع إلى التقدم والإصلاح كانت عظيمة حقا . وكان انتشارها أوسع مما يدل عليه عدد الذين جاهروا بمناصرة الشيخ الإمام والانطواء تحت لوائه ، فكان فى خارج الأزهر عدد من الذين يضمرون العطف عليه وعلى أغراضه أكبر جداً ممن هم فى داخله ، ولكن الخوف من الجهر بالرأى داخل الأزهر ، كان له أثر كبير خارجه ، فأفضى إلى إخفات صوت مناصريه وشل جهودهم ، بينما كان المعارضون لا يفتر لهم نشاط ولا يخفت لهم صوت .

ولم تجذب مبادىء الإمام الأزهريين كما اجتذبت طبقة المطربشين المتأثرين بالحضارة الأوروبية ، وكان العدد الأكبر من مريديه وتلاميذه من أرباب المناصب العالية فى القضاء وأساتذة المدارس العليا أو رؤساء المصالح الحكومية . وكان بعض هؤلاء قد تعلم فى الأزهر ، ولكن أكثرهم كانوا ممن تلقوا شيئا من علوم الغرب وبعضهم ممن جلس إلى جمال الدين الأفغانى .

* * *

وانتقل الأزهر بالقانون رقم ٦٠ سنة ١٩١١ إلى مرحلة أخرى من النظام . فقد أوضح القانون واجب الجامع الأزهر فى حيث القيام على حفظ الشريعة الغراء وفهم علومها ونشرها على وجه يفيد الأمة ويخرج

علماء يوكل إليهم أمر التعليم الدينى ويلون الوظائف الشرعية فى مصالح الأمة ، وقد زيد فى هذا القانون من اختصاصات شيخ الجامع الأزهر فهو زيادة عن كونه الامام الأكبر لجميع رجال الدين والرئيس العام للتعليم فيه وفى معاهده الملحقة به فهو المشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى من ينتمى لجميع المعاهد من أهل العلم وحملة القرآن الشريف من مصريين وغير مصريين . وهو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين واللوائح والقرارات المختصة بالجامع الأزهر والمعاهد .

وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخ بالجامع الأزهر وكذا لكل معهد من المعاهد الأخرى وأجيز تعيين وكيل للجامع والكليات عند مسيس الحاجة ، وجعل لكل قسم من أقسام الازهر شيخ ومراقبون وكتبه ، أما إنشاء الوظائف فيكون من إختصاص مجلس الأزهر الأعلى.

وأنشىء للازهر مجلس تحت إدارة شيخة ورئاسته ، كما أنشئت مجالس إدارة مماثلة للمعاهد التابعة للازهر . وقد أنشىء مجلس الأزهر الأعلى من شيخ الجامع بصفته رئيسا ومن أعضاء ثمانية هم شيخ السادة الحنفية وشيخ السادة المالكية وشيخ السادة الشافعية وشيخ السادة الحنابلة ومدير عموم الأوقاف المصرية وثلاثة ممن يكون لوجودهم بالمجلس فائدة لترقية التعليم وحسن انتظام إدارته بشرط أن يكونوا حائزين للصفات

الملائمة لحالة الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى ، ويكون تعينهم بإرادة سنية بناء على قرار مجلس النظار . وفى غياب شيخ الجامع ينوب عنه فى الرئاسة شيخ السادة الحنفية .

وقد عدلت تلك المادة فى القانون رقم ٦ لعام ١٩١٦ وزيد فيها (ولرئيس المجلس أن يدعو شيوخ المعاهد الأخرى لحضور الجلسات التى يحصل فيها نظر مسائل التعليم المتعلقة بمعهد كل منهم ويكون رأيهم استشاريا، فإذا اجتمعت مشيخة الأزهر ومشيخة أحد المذاهب الأربعة فى شخص رئيس المجلس الأعلى فيكون وكيله فى مشيخة مذهبه عضواً قانونيا فى المجلس لتمثيل أهل هذا المذهب)

وقد حدد قانون عام ١٩١٦ إختصاصات مجلس الأزهر الأعلى فجعل له حق وضع الميزانية العمومية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى وإنشاء المعاهد الدينية العلمية الإسلامية . وكثير من الاختصاصات التى ألغيت بقانون عام ١٩١٦ . وجدد موعد انعقاد مجلس الأزهر الأعلى مرة كل شهر على الأقل بدعوة من الرئيس ولشيخ الجامع عقده أكثر من ذلك إذا دعا الحال . وكان المجلس ينعقد عند الضرورة تحت رئاسة سمو الخديو عباس الثانى ، وقد ألغى هذا النص بعد ذلك .

وقرارات مجلس الأزهر الأعلى تكون بأغلبية الآراء فإن تساوى الفريقان فالأرجحية للفريق الذى فيه الرئيس كما حدد القانون إختصاصات مجلس الإدارة فى كل معهد من المعاهد بتحضير ميزانية المعهد الخاصة وتعيين المدرسين والمراقبين وتقرير الكتب الدراسية وتوزيع العلوم على المدرسين وتوزيع

ما يرد من النقود على المعهد . ومجلس الإدارة ينعقد كل أسبوع بدعوة من الرئيس ، أما مفتشو الجامع والمعاهد فقد كان تعيينهم من قبل الجامع الأزهر نفسه .

وقد طرأ على هذا القانون كثير من التعديلات فى عام ١٩٢٠ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، شملت مجلس إدارة الجامع الأزهر وشروط العضوية فيه والعلوم التى تدرس فى الجامع وتقسيم التعليم إلى أولى وثانوى وعال وقد أنشىء قسم التخصص فى قانون عام ١٩٢٣ .

الملك فؤاد والأزهر

تبين لنا مما سبق أن الأزهر قد لقى منذ إعتلى عرش مصر محمد على باشا الكبير كثيرا من ضروب العطف والعناية والاصلاح ، كان أعظمها ما تم فى أيام اسماعيل العظيم ويليه عباس الثانى ، زمن أن توالت القوانين واللوائح التى لم تمس جوهر التعليم ولا حرية الطالب فى اختيار الشيخ الذى يدرس عليه ولا حرية الاستاذ فى اختيار الكتاب الذى يدرسه .

ولكن لم يكن للازهريين مناصب فى الدولة وقفت عليهم أو وظائف خصصت لهم دون سواهم ، بل كان الازهر وحده المدرسة الجامعية التى تؤخذ منها الكفايات فى مناصب القضاء والفتيا وأعمال الدولة ومشى الزمان وتخصصت الاعمالة وتنوعت المدارس فاستغنى عن الازهريين فى الناحية العامة والوظائف الادارية . وما ختم عهد اسماعيل حتى كان الازهر مقصوراً على وظائف الفتيا والقضاء حتى الاخير كاد أن يسلب منه ، ولم يمنع ذلك إلا ما قام به الازهريون من اجتماع صارخ وهياج بلغ أشده . ولا شك أن هذه الفترة من حياة الازهر إلى

وقت صدور قانون ١٨١١ كانت فترة تسامح ، إذ لم يكن الازهر فى هذه الآونة قد استقر إلى قرار ، فإن كان الازهر فى هذه الفترة قد أخرج لنا فطاحل عظام أمثال الشيخ الامام محمد عبده وسعد زغلول والشيخ القبانى والشيخ على يوسف ومصطفى الباجورى والشيخ النواوى وغيرهم إلا أن القوانين التى كانت قد صدرت لمصلحة الازهر لم تصل به إلى حد الكمال ، حتى قيض الله له المليك الراحل فؤاد .

كان الملك فؤاد ملكا مصلحاً ، وكان فى إصلاحه بعيداً عن الاغراض الشخصية لا يقيده أى لون من التعصب . فقد استطاع وهو فى سن الخمسين أن يكون لنفسه منهجه الإصلاحى الخاص . وإن كان بعد هذا النهج قد تكون إلى حد ما قبل اعتلاءه العرش . وكانت سنواته السابقة حافلة بمختلف المشروعات التى بذل فيها جهودا شخصية هائلة .

وما كاد يعتلى عرش مصر حتى أظهر رغبة ملحة فى إدخال بعض الاصلاحات الضرورية على الازهر باعادة النظر فى قوانينه ليكون على نظام يكفل للطلاب أن ينالوا قسطا عظيما من الثقافة العامة بما لا يتعارض مع طبيعة الازهر الدينية والعربية ، وتؤهلهم للقيام على حفظ الشريعة الغراء أصولها ، وفروعها ، وعلى تعلم اللغة العربية ونشرها على وجه يفيد الأمة ، ويعدهم لتدريس هذه العلوم فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة وتولى الوظائف الشرعية فى الدولة .

والواقع أن العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر لم تكن تتفق مع العصر الحديث ، مما جعل الملك فؤاد يفكر جديا فى إدخال بعض

التعديلات على برامج الدراسة وإدارة الأزهر ، فلقى هـذا الاصلاح صعوبات وعقبات جمة يرجع بعضها إلى تمسك بعض رجال الأزهر أصحاب المدرسة القديمة بما للأزهر من عوائد وتاريخ ؛ والذين تطلعوا إلى تلك الإصلاحات فى غير اطمئنان ، وكان لهم من جمودهم ما حملهم على النظر إليها فى هـــذه الصورة . ويرجع البعض الآخر إلى ظروف مادية ..

ولـكن الملك فؤاد لم يتردد رغم هذه الظروف فى تنفيذ ما كان يراه من إصلاحات خطوة لخطوة . فأصدر كما أسلفنا عدة قوانين عام ١٩٢٠ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ كما أصدر فى ٢٤ جمادى الآخر عام ١٣٤٩ هـ (١٥ نوفمبر عام ١٩٣٠ م) مرسوما بقانون رقم ٤٩ بإعادة تنظيم الأزهر والمعاهد الدينية والكليات وبدء العمل به فى عام ١٩٣١ م .

بدأ القانون بإصلاح مجلس الأزهر الأعلى الذى كان حجر عثرة فى سبيـل كل إصلاح يدق باب الأزهر فأدخل على طريقة تـكوينه وإصلاحه ألوانا من الاصلاح ملموسة . كما أنشىء بجانب الأزهر كثير من المعـاهد فى عواصم الأقاليم وإن كانت لم تصـل إلى مكانة الجامع الأزهر أو معهد طنطا . وقد لاحظ الملك فؤاد أن كثيراً من الطلاب يفضلون الالتحاق بهذين المعهدين . فحارب جلالته هذه النزعة ليخفف الضغط على الأزهر والمعهد الأحمدى ، فأنشأ معهدى الزقازيق وأسيوط فى أبنية رائعة فاخرة تسع كل منها ما يزيد على ألف طالب . كما تكلف كل بناء منها ماينوف على الأربعين ألفا من الجنيهات .

وكان من أهم مميزات الجامعة الأزهرية أنها انفردت بجمعها بين مراحل التعليم الثلاث ، الابتدائى والثانوى والعالى ، بينما كانت المعاهد الأخرى قاصرة على المرحلتين الابتدائيه والثانويه .

وكان قانون ١٩١١ يخول للمعاهد الأخرى حق تدريس مقرر المرحلة العليا ، ولكنه اشترط أن يعقد الامتحان لنيل شهادة العالمية فى القاهرة . غير أنه سرعان ما اتضح أن هذا التغيير الجديد قد لقى صعوبة عنيفة لضعف مستوى طلاب المعاهد الفرعية ضعفا بينا ، فطلب جلالته إلى مجلس الأزهر الأعلى أن يدرس الأمر ويبدى رأيه فيه ، فاستقر الرأى على تركيز مرحلة الدراسة العليا فى الجامعة الأزهرية فى القاهرة ، ثم صدرت بعد ذلك عدة قوانين ضم بمقتضاها إلى الأزهر كثير من المدارس الخاصة كمدرسة القضاء الشرعى ومدارس المعلمين الأولية .

والحقيقة أن الملك فؤاد خطا بالأزهر خطوات كبيرة ثابتة ، فنراه يحاول تخفيف المركزية التى كان يمتازبها الأزهر ويستبدلها باللامركزية التى أفادت الطلاب أكبر فائدة ، فأكثر من إنشاء المعاهد فى الأقاليم وساعدته على ذلك وزارة الأوقاف التى ساهمت بكل ماأمكنها من مال وجهد فى بناء تلك المعاهد ، كما أجاز أن تنشأ معاهد أخرى بمرسوم وأنشأ أقساما عامة الغرض منها سد حاجة من يريد التوسع فى معرفة أحكام الدين أو اللغة العربية ويتولى إدارة هذه الأقسام شيخ الجامع الأزهر طبقاً للنظم التى يقررها مجلس الأزهر الأعلى ، وأنشئت على

إثر ذلك أقسام عامة بالقاهرة وطنطا والمنيا وسوهاج وقنا ، كما أمر بتشكيل هيئة كبار العلماء من ثلاثين عالما برياسة شيخ الجامع الأزهر ، واشترط لعضويتها أن يكون حائزا لشهادة العالمية مع لقب أستاذ من مدة لا تقل عن خمس سنين وأن يكون مشهودا له بالورع والتقوى وألا يقل سنه عن خمس وأربعين عاما ، وأن يكون قد ألف كتابا قيما فى مادة مقررة بالكليات وأن يكون قد أشتغل بالتدريس فى الكليات أو بالقضاء من درجة شيخ معهد وأن تقبله هيئة كبار العلماء بالأغلبية المطلقة . وأجاز فصل العضو إذا حدث منه مالايناسب وصفه عالما ومحو اسمه من سجل العلماء ويجوز إعادته بعد عشر سنين من قرار فصله ، كما أجاز القانون المذكور لشيخ الجامع الأزهر حضور مجلس إدارة الكليات والمعاهد .

وقد جعل هذا القانون التعليم فى الأزهر أربع مراحل :

١) إبتدائى ومدته اربع سنين ويدرس فيه من المواد مايلى :

الفقه ، والأخلاق العربية ، والتجويد ، وحفظ القرآن الكريم ، والتوحيد ، والسيرةالنبوية ، والمطالعة والمحفوظات ، والإنشاء ، والنحو ، والصرف ، والاملاء ، والخط ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والحساب ، والهندسة العملية ، ومبادىء العلوم ، وتدبير الصحية ، والرسم .

٢) ثانوى ومدته خمس سنوات ويدرس فيه من المواد مايلى :

الفقة والتفسير ، والحديث ، والتوحيد ، والقرآن الكريم ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة (البيان والبديع والمعانى) ، والعروض والقافية ، والمطالعة ، والمحفوظات ، والانشاء ، وأدب اللغة ، والرياضة

الحساب والهندسة والجبر والعلوم (الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى) والمنطق والتاريخ والجغرافيا والأخلاق والتربية الوطنية .

٣) عال ومدته أربع سنوات وينقسم إلى ثلاث كليات :

(ا) كلية اللغة العربية ويدرس فيها من المواد ما يلى :

النحو والوضع والصرف والمنطق وعلوم البلاغة والآداب العربية وتاريخها وتاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأمم الإسلامية والتفسير والحديث والأصول والإنشاء وفقه اللغة .

(ب) كلية الشريعة ويدرس فيها من المواد ما يلى :

التفسير والحديث متنا ورجالا ومصطلحا وأصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامى والفقه مع مقارنة المذاهب فى المسائل الكلية وحكمة التشريع وآداب اللغة العربية وعلوم البلاغة والمنطق .

(ج) كلية أصول الدين ويدرس فيها من المواد ما يلى :

التوحيد مع إيراد الحجج ورفع الشبه خصوصاً الذائع فى العصر منها والمنطق والمناظرة والفلسفة مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها والأخلاق والتفسير والحديث وآداب اللغة العربية وتاريخها وتاريخ الاسلام وعلم النفس وعلوم البلاغة .

٤ — التخصص وهو على نوعين : تخصص فى المهنة وتخصص فى المادة والغرض من التخصص فى المهنة هو :

اعداد علماء يقومون بمهنة الوعظ والارشاد أو الوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والإفتاء والمحاماة ، أو التدريس فى المعاهد الدينية

ومدارس الحكومة .

والغرض من التخصص فى المادة : إعداد علماء متفوقين فى العلوم الأساسية لكل كلية من الكليات الثلاثة ويعين حاملو شهادة هذا القسم فى وظائف التدريس بالكليات وبأقسام التخصص .

وهناك علاوة على ذلك أقسام غير نظامية يسمح فيها بدخول الطلبة الذين لم تتوافر فيهم شروط القبول بالأقسام النظامية . وكذلك أفراد الجمهور للتوسع فى دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية .

الشهادات :

والشهادات التى تعطى للناجحين فى الامتحانات النهائية هى :

١ — الشهادة الابتدائية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الابتدائى وتخول صاحبها الاندماج فى القسم الثانوى للقسم الأول

٢ — الشهادة الثانوية للقسم الأول :

يمنح لمن أتموا دراسة السنوات الأولى والثانية والثالثة فى القسم الثانوى وتخول صاحبها الاندماج فى القسم الثانوى للقسم الثانى :

٣ — الشهاده الثانويه للقسم الثانى :

تمنح لمن أتموا دراسة كلية من كليات القسم العالى . والحائزون لها يكونون أهلا للتوظف فى الوظائف الكتابية بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية والأوقاف والتدريس فى المساجد ولوظائف الخطابة والأمامة والمأذونية .

(٥) شهادة العالمية :

تمنح لمن أتموا دراسة التخصص فى مهنة التدريس أو القضاء الشرعى أو الوعظ والارشاد ، والحائزون لها فى قسم التخصص فى مهنة التدريس يكونون أهلا للتدريس فى المعاهد الدينية وفى مدارس الحكومة ؛ والحائزون لها من قسم التخصص فى القضاء يكونون أهلا للوظائف القضائية بالمحاكم الشرعيه والافتاء والمحاماة أمام المحاكم الشرعيه والمجالس الحسبيه . والحائزون لها من قسم التخصص فى الوعظ والارشاد يكونون هلا لوظائف الوعظ والارشاد .

٦ — شهادة العالميه مع لقب أستاذ :

تمنح لمن تخصص فى مادة من المواد ، والحائزون لها يكونون أهلا للتدريس فى الأزهر وفى أقسام التخصص .

مجلس الأزهر الأعلى :

قضى القانون الجديد بتأليف هيئة تشريعيه لها حق النظر فى اللوائح والقوانين التى تلزم لسير الدراسه والإدارة وغيرها فى الأزهر والمعاهد الدينيه ، وتسمى تلك الهيئه (مجلس الأزهر الأعلى) وهو يؤلف من :

(١) شيخ الجامع الأزهر .

(٢) وكيل الجامع الأزهر والمعاهد الدينيه وله رياسة المجلس عند غياب شيخ الجامع الأزهر

(٣) مفتى الديار المصرية

(٤) مشايخ الكليات الثلاث

(٥) وكيل وزارة العدل

(٦) « « الأوقاف

(٧) « « المعارف

(٨) « « المالية

(٩) اثنين من هيئة كبار العلماء ويعينان بأمر ملكى لمدة سنتين .

(١٠) اثنين ممن يكون فى وجودهم بالمجلس مصلحة للتعليم بالأزهر والمعاهد الدينية ويعينان بمرسوم لمدة سنتين .

المعاهد الدينية التابعة للازهر .

أطلق إسم الجامع الأزهر فى القانون على كليات التعليم العالى وعلى أقسام التخصص .

ويطلق إسم المعاهد الدينية على معاهد التعليم الدينى الاسلامى التى يكون التعليم فيها بقصد تفقه الطلاب فى دينهم وفى اللغة العربية وإعدادهم لدخول الجامع الأزهر .

والتعليم فى هذه المعاهد ابتدائى وثانوى

وكانت المعاهد الدينيه المنشأة هى :

(١) المعهد الأزهرى بالقاهرة : إبتدائى وثانوى

(٢) معهد الاسكندرية : « «

(٣) معهد الزقازيق : إبتدائى وثانوى

(٤) « أسيوط : إبتدائى وثانوى

(٥) « دسوق : إبتدائى

(٦) معهد طنطا : إبتدائى وثانوى

(٧) معهد دمياط : إبتدائى

وكان لصدور هذا القانون وإنتشار أنبائه وقع حسن فى نفوس المسلمين فى عامة الأقطار فابتدأت البعثات تتوارد وتتتابع من الصين وبولونيا وألبانيا والهند وغيرها للاغتراف فى هذا المنهل العذب ، كما أخذت الجامعات الكبرى تتصل بالأزهر وكان آخرها عهداً جامعة غرناطه التى لبى الأزهر دعوتها إلى الاحتفال بمرور القرن الرابع على تأسيسها .

الملك فاروق والأزهر

سار جلالة الملك فاروق على نهج والده الراحل العظيم الملك فؤاد، فشمل الأزهر برعايته وعطفه وأغدق عليه من نعمه وبره؛ فأصدر الكثير من المراسيم والقوانين لرفع مكانته وإعلاء شأنه فنظمت إدارته وإدارة أوقافه وفرش صحنه بالسجاد الثمين وزاد فى عمارته وأصلح ما تلف من بنائه كما قرر لعلمائه وأساتذته المرتبات العالية فوضع لهم منذ أعوام كادراً خاصا بهم، فأنصفوا بعد إجحاف وأعطى لمؤهلاتهم حقها من التقدير الأدبى والمادى وأصبح لكل عالم الحق فى أن يعين فى الدرجة السادسة بل أصبح من رؤساء المعاهد من هو فى الدرجة الثالثة.

كما أبدى حفظه الله عظيم الاهتمام بطلبة الأزهر خصوصا الغرباء منهم، فقد أجرى عليهم المنح والعطايا وأجزل لهم الهبات أثناء الحرب العالمية الأخيرة وفى وقت انقطعت فيه سبل المواصلات فانقطع بذلك ما كان يصلهم من أهليهم من رواتب ونقود، فعطف عليهم العطف كله وساعدهم على مواصلة دروسهم والمضى فيها فى اطمئنان تام.

وتحول الأزهر فى عهده السعيد إلى جامعة إسلامية حديثة حقة ، فابتدأت طريقة الحلقات الدراسية العتيقة فى الانقراض واستعيض عنها بطريقة إلقاء الدروس فى حجرات دراسية على النمط المتبع فى الجامعات العصرية ، كما أدخل إلى الأزهر الكثير من اللغات الأجنبية كالانجليزيه والفرنسية واللاتينية . ولم يقتصر التدريس فى الأزهر على علمائه ، بل أزاح الأزهر عنه ثوب الجمود القديم الذى لازمه عصوراً طويلة ، وهجر الفكرة القديمة بأن لا يتصدر للتدريس فيه إلا من تخرج منه ، فسمح فى السنين الأخيرة لكثير من خريجى الجامعة المصرية والمعاهد الأجنبية . باقتحامه والتدريس فيه ، ودرسوا الطلبة اللغات الأجنبية والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء والهندسة والجبر والحساب ، بل عين عدد كبير منهم فى المعاهد الأزهرية المختلفة . فأصبحت الجامعة الأزهرية تضاهى أعظم جامعات العالم لما تحتويه من لغات قديمة وحديثة .

وحظى الأزهر فى زمن الفاروق بكثير من الإصلاحات ، فزيد عدد معاهده ، وأنشىء معهدا قنا وشبين الكوم كما خصص فى ميزانية هذا العام مبلغا كبيراً لإنشاء معهد جديد فى مدينة سوهاج وهكذا سنة بعد أخرى تنمو هذه الجامعة وتكبر فيزداد إقبال الطلاب عليها حتى أربى عددهم على إثنى عشر ألفا من جميع الاقطار والأجناس ففيها من بلاد طرابلس وتونس والجزائر ، ومراكش والسودان والحبشة

والصومال وبرتو وجنوب أفريقية والشام والعراق والحجاز ونجد واليمن وجاوة والهند والصين وروسيا والقوقاز والأناضول وكردستان وأفغانستان وتركيا وألبانيا ويوغوسلافيا وبولونيا وبلغاريا وأمريكا .

ولا ريب أنه انقلاب خطير ذلك الذى أصاب الأزهر فى العصر الأخير فحول مجرى حياته وأسبغ عليه طابعاً جديداً . إذ لم يبق من الجامع الفاطمى القديم الذى عرفناه فى أول الكتاب سوى صرحه الجليل الذى ما زال قائما فى نفس المكان الذى اختاره له منشئه الأول القائد الكاتب أبو الحسن جوهر الصقلى وزير المعز لدين الله الفاطمى .

ولا بد لنا هنا من أن نقرر حقيقة واقعة هى أن الإصلاح الحقيق للأزهر بل الانقلاب الواقعى لنظام الأزهر القديم ومناهجه ورسومه وتقاليده وعوائده وروحه التى كانت سائدة فيه ، قد إبتدأ فعلا من زمن خديو مصر العظيم اسماعيل ووصل إلى أوجه فى عصرنا الحاضر، عصر الفاروق . فقد خلع الأزهر رداءه العلمى العتيق واستبدله برداء جميل جديد من نسيج حديث لم يكن له به عهد ،فبدالنا الأزهر جامعةعصرية تجمع كليات حديثة منظمة على أحدث الطرق الاوروبية . وهو وان لم يكن قد وصل بعد إلى طريق الاستقرار والوضوح ، فقد نظمت الدراسة فيه وفى معاهده فى مراحل عدة وأنشئت معاهد جديدة وأجازات تخصص وأعدت للطلبة أبنية صحية جميلة للدرس والسكنى ، بدل تلك الاروقة

والحارات التى كانت تنقصها الكثير من شروط الصحة والنظافة والفرش الوفير .

وقد وضع أخيرا تصميما لمشروع إنشاء مدينة جامعية أزهرية فى حى الأزهر لإنشاء مساكن على نطاق واسع تسع جميع الطلبة كما عمل تصميم لإنشاء مكتبة عامة تجمع ما تكدس من كتب قيمة ومؤلفات ومخطوطات ثمينة بدل تلك التى تضيق بما فيها من كتب وتفتقر إلى قاعة مطالعة فسيحة .

ويجب ألا ننسى ذكر ما أدخل على برامج التعليم من التغييرات والتعديلات والكثير من المواد العصرية الصالحة كتاريخ التشريع والنظام الدستورى ومبادىء الاقتصاد ونظم التربية والاخلاق وعلم النفس واللغات الأجنبية والشرقية ، كما أرسل عدد عظيم من خريجى الجامعة الأزهرية فى بعثات إلى باريس ولندن وبرلين . وقد عاد بعض هؤلاء الطلبة إلى الأزهر لينشروا فيه ما تلقوه فى تلك المعاهد من علوم حديثة وأفكار جريئة .

وقد تغلغلت الروح العصرية الحديثة تغلغلا شديدا فى الأزهر وتكونت فيه فرق متعددة للألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والألعاب السويدية . بل اندمجوا فى سلك التدريب العسكرى مرتدين الملابس العسكرية متطوعين فى سلك الجيش مع أنهم معفون من الجندية .

ومما لا شك فيه أن الأزهر بحاله القديم لم يكن يصلح لأيامنا الحاضرة ، بل كان عليه أن يتغير ويتبدل وأن يقع تحت أدوار متتابعة

من الإصلاح والتجديد ليسير مع الزمن وليجارى دائما وباستمرار روح العصر الذى هو فيه ليسهر على ما فيه من علوم أساسية وآداب عربيـة هى تراث مصر بل أثمن تراث ورثته عن السلف وليصون هذا التراث الثمين بين جدرانه من أن يعبث به عابث أو أن يضيع بين زوايا التاريخ .

وقد وضع الفاروق تلك الغاية دائما نصب عينيه ، فهو يحاول جاهداً أن يرفع من شأن هذا المعهد العتيق وأن يبعد عنـه الجمود القديم الذى اشتهر به ولازمه مدة طويلة .

فعندما خلا مكان شيخ الجامع الأزهر عقب وفاة المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى أراد حفظه الله أن يختار مكانه رجلا فاضلا ، يعلى من شأن الجامع والدين ويحفظ ماله من هيبة قديمة وتاريخ مجيد ويسير به قدما نحو التقدم والارتقاء . فلم يجد من يستطيع حمـل تلك الأمانة إلا رجل كالشيخ مصطفى عبد الرازق باشا الذى كان وزيرا للأوقاف العمومية فى ذلك الوقت .

ولـكن القانون لم يكن يسمح بتعيينه شيخا فقد اشترط فيمن يعين شيخا للجامع الأزهر كما أسلفنا أن يكون من هيئة كبار العلماء وأن تقبله تلك الهيئة بالأغلبية المطلقة وأن يكون قد اشتغل بالتدريس فى الكليات أو القضاء من درجة شيخ معهد ، وأن يكون قد ألف كتابا قيما فى مادة مقررة بالـكليات . ولم يكن الشيخ مصطفى عبد الرزاق حائزاً لكل تلك الشروط . فرأى جلالة الملك ، بماله من رأى حصيف وخبرة واسعة

أن لا يحرم الأزهر من رجل ذى شخصية فريدة عظيمة كالشيخ مصطفى عبد الرازق . فأسند إليه جلالته رئاسة الجامع الأزهر مكتفيا بما عرف عن الشيخ عبد الرازق من سمعة طيبة وكونه حائزاً للشهادة العالمية الأزهرية وأنه قام بالتدريس مدة ليست بالقصيرة بجامعة فؤاد الأول وله مؤلفات قيمة فى الفلسفة والأدب والتاريخ . وقد طلب الشيخ مصطفى من جلالة الفاروق عند تعيينه أن يعفيه من حمل لقب الباشوية تواضعا وذلك لأنه لم يجر العرف فى أن يحمل شيخ الجامع الأزهر أى لقب من ألقاب التشريف سوى لقب شيخ فأعفاه جلالته منها .

والحقيقة أن الملك فاروق خطا بالأزهر خطوات كبيرة ثابتة ورفع من مكانته كجامعة عربية إسلامية ، ونهض بالأزهر نهضة قوية فارتفع صيته .

كما حظى الأزهر عدة مرات بزياراته الكريمة وتأديته فريضة الجمعة فيه وحضوره بعض الدروس الدينية التى كان يلقيها بين يدى جلالته فى رمضان من كل عام شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى رحمه الله .

شيوخ الازهر

كان شيوخ الأزهر يختارون من أئمة العلماء وأكثرهم علما وتقوى ، على أننا نجد بين هؤلاء الشيوخ رجالا ذوى قيمة كبيرة وآخرين لا شأن لهم . فكان بعضهم من ذوى المواهب الإداريه . ولكنه لم يكن له فى العلم مقام كبير على حين أن البعض الآخر كان له مقام فى العلم دون الإدارة .

لم يكن للأزهر شيخ قبل العصر التركى ، بل كان على رأسه ناظر ينتخب من بين كبار موظفى الأزهر فأنشىء هذا المنصب أثناء الحكم العثمانى لمصر ، ليكون شاغله رئيسا لجميع شيوخ الأزهر وهمزة الوصل بينهم و بين الوالى الذى كان له الشأن الأوحد فى تعيين الشيخ وانتخابه يتعهده بإنفاذ كلمته وإبعاد العناصر الساعية إلى الفتنة والفوضى . وكان للشيخ مطلق الحق فى معاقبتهم بالطرد من الجامع أو النفى إلى بلادهم منعا للشر والإضطراب .

وكان لنفوذ الباشوات أثر كبير فى تعيين مشايخ الأزهر مما أدى إلى

الكثير من القلاقل بين أتباع المذاهب المختلفة ، والشيوخ كانوا يعينون لمدد متفاوتة وإنزالهم من المشيخة رهن مشيئة الحاكم التركى وقد حفظ لنـــا الجبرونى أسماء شيوخ الأزهر من عام ١١٠٠ هـ فأول من تولى المشيخة هو :

١) الشيخ محمد بن عبد الله الخرشى المالكى الذى كان على جانب عظيم من العلم والصلاح والتواضع ، له شرحان على مختصر خليل وكتاب فى البسملة ، توفى فى ١٧ ذى الحجة عام ١١٠١ هـ ثم

٢) الشيخ ابراهيم بن محمد البرماوى الشافعى كبير علماء الشافعية فى زمنه والمتوفى عام ١١٠٦ هـ ثم

٣) الشيخ محمد النشرتى المالكى . من بلدة نشرت بمديرية الغربية ، ولما توفى عام ١١٢٠ هـ نشب خلاف شديد بين

٤) الشيخ احمد النفراوى وبين

٥) الشيخ عبد الباقى القلينى بسبب المشيخة والتدريس بالمدرسة الاقبغاوية ، وانقسم المجاورون قسمين ، قسم يؤيد الشيخ النفراوى وقسم يؤيد الشيخ القلينى الذى لم يكن بمصر وقت الفتنـة . فلما أراد الشيخ النفراوى التدريس بالمدرسة ، منعه القاطنون بها . ثم حضر الشيخ القلينى إلى القاهرة ، فذهب جماعة النفراوى إلى الأزهر ليـلا حاملين البنـــادق وأطلقوها على جماعة القلينى وأخرجوهم قوة من المدرسة وأجلسوا الشيخ النفراوى مكان القلينى . فحدثت معركة شديدة بين الجمعين قتل أثناءها عشرة من جماعة النفراوى غير الجرحى وانتهبت

الخزائن وتكسرت القناديل . فلما حضر الوالى هرب المجاورون فأمر بإخراج جثث القتلى ،

وذهب النفراوى فى اليوم التالى إلى ديوان الوالى شاكيا كثرة ماقتل من جماعته وما أتلف من أروقته ، فرفض الوالى أن يصغى إليه وأمره أن يلزم بيته كما أمر بنفى الشيخ احمد شنين أحد زعماء الحركة إلى بلدته وحبس عددا كبيرا من المجاورين وعين الشيخ القلينى شيخا للجامع الازهر فلما مات تولاها

٦) الشيخ محمد شنن المالكى المتوفى عام ١١٣٣ ﻫ وكان واسع الثراء يقتنى الكثير من المماليك والجوارى وعند موته ترك لولده ثروة كبيرة قدرت بأربعين ألف بندق ذهب خلاف الخزلى والطرلى وكثير من الفضة والأملاك والضياع ، ولكن ابنه كان متلافا فبددها كلها ومات مدينا . ثم تولى المشيخة

٧) الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومى المالكى المولود عام ١٠٦٢ ﻫ والمتوفى عام ١١٣٧ ﻫ .

وقد توالى على المشيخة بعده كثير من العلماء المالكية أشهرهم الشيخ شهاب الشبراملسى والشيخ الزرقانى والشيخ الشيشينى والشيخ الفرماوى ثم انتقلت المشيخة بعد ذلك إلى الشافعية فتولاها :

٨) الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى المولود عام ١٠٩٢ﻫ والمتوفى عام ١١٧١ ﻫ وكان من بيت علم وفضل شاعرا أديبا . وكان يسكن داراً عظيمة على بركة الأزبكية بالقرب من الرويعى ، وكان ذو

ولع شديد باقتناء الكتب النفيسة والتحف ، وقد ترك آثاراً أدبية هامة أشهرها كتاب مطامح الألطاف فى مدائح الاشراف وكتاب شرح الصدر فى غزوة أهل بدر . وترك كذلك ديوانا كبيرا من الشعر وكان يجمع بين المشيخة والخطابة فى جامع سراى الحاكم التركى ثم تولى المشيخة بعده عام ١١٧١ هـ

٩) الشيخ محمد بن سالم الحنفى الخلوتى الشافعى المولود عام ١١٠٠ هـ والمتوفى ١١٨١ هـ وكان عالما تقيا ترك مؤلفات عظيمة فى الحديث والعقائد والفرائض والجبر ثم تولاها

١٠) الشيخ عبد الرءوف بن عبد الرحمن السجينى وتوفى عام ١١٨٢ هـ فتولاها ،

١١) العلامة الشيخ احمد عبد المنعم الدمنهورى المولود عام ١١٠١ هـ وتوفى عام ١١٩٠ هـ فحدث نزاع على المشيخة استمر سبعة أشهر بين

١٢) الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى الحنفى المتوفى عام ١١٩٣ هـ

١٣) والشيخ احمد العروسى الشافعى المولود عام ١١٣٢ هـ والمتوفى عام ١٢٠٨ هـ وانتهى الأمر بتوليته المشيخة

وذلك أنه لما زاد المرض على الشيخ الدمنهورى ، طمع الشيخ العريشى فى اعتلاء المشيخة فتحايل على ذلك بأن ذهب إلى الأزهر ومعه شيخ البلد ابراهيم بك ، فجمع العلماء والفقهاء وأخبرهم بأن الشيخ الدمنهورى وقد اشتد عليه المرض قد أقامه وكيلا عنه فى المشيخة لحين برئه ، ثم مات الدمنهورى بعد عدة أيام فتولى الشيخ العريشى المشيخة

بعد أن استمال إليه عدد كبير من الأمراء والكبراء .

ولكن ذلك لم يرض الشيخ العروسى . فرفع الكثير من العرائض إلى شيخ البلد والأمراء والأعيان وأيده الكثير من علمـــاء الجامع وأئمته . وادعى أحقية المشيخة لأصحاب المذهب الشافعى لا الحنفى وأن فى علماء الشافعية من هو أحق بها ، بل أن الشيخ العروسى نفسه أحق بها من غيره . ولكن الأمراء بدعوى أن الوالى والوزير من أصحاب المذهب الحنفى رفضوا الإصغاء اليه . فنجم عن ذلك حزبين ، حزب الأمراء والشيخ العريشى، يعاونهم طائفة الشوام والمغاربة وحزب الشيخ العروسى الذى تمكن من الوصول إلى إقناع ابراهيم بك شيخ البلد بأحقيته فى المشيخة فاضطر أنصار الشيخ العريشى إلى حراسة أبواب الأزهر لمنع أنصار الشيخ العروسى من الدخول .

وبعد سبعة أشهر ، حدث أن قام نزاع شديد بين الأتراك والشوام من المجاورين ، فأنضم الشيخ العريشى لطائفة الشوام من بنى جنسه ، فأغضب مسلكه الأمراء وتخلوا عنه فاضطر إلى الاختفاء عن الأنظار فعزل من الإفتاء ، وحضر أغا قصر شيخ البلد والشيخ العروسى إلى الأزهر وحاولا القبض على المجاورين الشوام ولكنهم كانوا قد أخلوا رواقهم وأغلقوه . ثم تم الصلح بين الأتراك والشوام فثبت الشيخ العروسى فى مشيخة الأزهر وأصدر شيخ البلد أمراً للعريشى بملازمة بيته فبقى فيه الى أن مات عام ١١٩٣ هـ حزنا وأسى

ولم يكن عهد الشيخ العروسى فى المشيخة عهداً هادئا ، بل كثرت

فيه الفتن والقلاقل ، فقد حدث عام ١١٩٩ هـ أن قطعت رواتب جراية فقراء المجاورين القاطنين بالأزهر ، فثاروا وأغلقوا أبواب الجامع ومنعوا منه صلاة الجمعة كما أغلقوا المدرسة المحمدية والمسجد الحسينى ، وخرج المجاورون العميان والسوقة يعيثون فى الأسواق فسادا ، فنهبوها ولم يهدأوا حتى حضر أغا القصر سليم أغا مستحفظان ووعدهم بإعادة أرزاقهم ورواتبهم اليهم .

ولكن حدث فى العام نفسه أن هاجم حسين بك المعروف باليهودى المنازل ونهب كل ما كان فيها من فرش ومصاغ ومال ، فثار أهالى الحسينية يقودهم الشيخ الدردير وأغلقوا الجامع وصعد بعضهم على المنارات يدقون طبولهم ، وانتشر معظمهم فى الأسواق فأغلقت الحوانيت ، فلما جاء المساء ذهب سليم أغا ومحمد كتخدا — كتخدا إبراهيم بك — إلى الشيخ الدردير طالبين إليه إيقاف الثورة ، فقدم لهم الشيخ الدردير كشفا بالمنهوبات فرفعه الأغا إلى شيخ البلد .

وتكررت تلك الحوادث عدة مرات ، فقد كان عصر إبراهيم بك عصر فوضى واضطهاد وسرقة وعدوان سواء كان ذلك صادرا عن الوالى أو الأغا أوحسين بك . ثم تولى مشيخة الأزهر بعد ذلك .

١٤) الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى . المولود فى حدود عام ١١٥٠ هـ والمتوفى عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) اشتهر بمصنفاته الكثيرة فى الدين والتصوف والتاريخ ، فكان أعظم من تولى مشيخة الأزهر ، وإن كان عهده أكثر اضطرابا من سلفه ، بل أكثر العهود اضطرابا ،

فقد دخلت الجيوش الفرنسية مصر واقتحمت القاهرة واحتلت القلعة وأرسل نابليون إلى مشايخ الأزهر يطلب منهم الشخوص إليه فرفضوا ثم قامت ثورة القاهرة بتحريض العلماء فأطلق نابليون مدافعه من القلعة على الأزهر والحسينية فقتل عدد كبير فركب المشايخ إلى نابليون ، فعاتبهم على مسلكهم نحوه فاعتذروا إليه كارهين طالبين منه الكف عن ضرب المدينة فأوقف إطلاق النار ، بعد أن هاجم الفرنسيون حى الحسينية وأزالوا ما أقامه المصريون فى الحوارى والأزقة من متاريس ومدافع ، ثم دخلوا الجامع الأزهر بخيولهم وتفرقوا فى صحنة ومقصورته وربطوا خيلهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم وأتلفوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوا عليها بنعالهم وأخرجوا من فى الأزهر من المجاورين ، إلى أن استعطف المشايخ نابليون فأمر بإخلاء الأزهر من الجنود الفرنسية بعد أن أمر بالقبض على كثير من المشايخ زعماء الحركة وحبسهم فى بيت البكرى ثم ساقهم عرايا إلى القلعة ثم ضربهم ضربا مبرحا وقتلهم رمياً بالرصاص وألقاهم خلف القلعة .

وفى ليلة عيد الفطر وأثناء وجود نابليون بالشام ، اصطف بعض الجنود الفرنسية أمام الجامع الأزهر وطلبوا من شيخه الشرقاوى أن يرفع الرايات والأعلام الفرنسية على منارات الجامع ، فنصب بيرقين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين عند كل هلال بيرقا وأطلقوا المدافع احتفالا بذلك .

ثم حدث أن قتل سليمان الحلبي القائد كليبر بينما كان يتنزه فى قصره بالأزبكية وقبض عليه . وعلم المحققون أن الحلبي يقطن رواق الشوام بالأزهر ، فقبضوا على عدد كبير من طلبته وحكم عليهم ظلماً بقطع رقابهم ، أما القاتل فقد أجلس على خازوق حتى مات . كما أصدر القائد منيو أمراً بتفتيش الأزهر وحرمان الأتراك من دخوله ، فاستمروا لايدخلونه إلى أن جلى الفرنسيون عن مصر .

ولما توفى الشيخ الشرقاوى دب الشقاق بين المجاورين ، فقد كان بعضهم يريد ارتقاء المشيخة إلى أن تولى :

١٥) الشيخ المهدى ، وفى أيامه ظهر فى الأزهر بعض اللصوص الذين كانوا يختبئون خلف عمد الصحن ليلاً حتى إذا انفرد أحد الأشخاص هاجموه ونهبوه ، فقبض عليهم الشيخ المهدى وأخرجهم من الجامع ، كما حدث أيامه أن سكن حارات الأزهر كثير من القوادين والنساء سيئوا السيرة فأمر بإخراجهم منه محافظة على كرامة الأزهر وقدسيته ، كما أبطل اختصاص أهل كل مذهب بعمد مخصوصة وأبقى اختصاص كل شيخ بعمود ، وإذا خلا عمود بموت شيخه أو انقطاعه ، فلغيره أن يأخذه ولو لم يكن من أهل مذهبه ، وقد يشترك فى العمود شيخان يتبادلان الوقت ، وقد يكون للشيخ عمودان يقرأ فى أحدهما صباحاً والآخر مساء . وكان الشيخ ينوى إدخال الكثير من الإصلاحات لولا المعارضة الشديدة التى قابله بها مشايخ الأزهر فلازم بيته واستمر

شيخا للأزهر بالاسم فقط مدة طويلة ، ثم اضطر إلى اعتزال المشيخة فعقبه .

١٦) الشيخ الشنوانى المتوفى عام ١٢٣٣ ه ، ثم

١٧) الشيخ أحمد العروسى المتوفى عام ١٢٤٥ ه ، ثم

١٨) الشيخ أحمد بن على الدمهوجى الشافعى المتوفى عام ١٢٤٦ ه وكانت داره برقعة القمح خلف رواق الصعايدة ومدة رئاسته للجامع ستة أشهر ، ثم تولى بعده

١٩) الشيخ حسن بن محمد العطار المتوفى عام ١٢٥٠ ه وكان رجلا شاعراً ناثراً مستنيراً اشتهر بغزارة علمه ، اتصل بعد خروج الفرنسيين من مصر ببعضهم فتعلم لغتهم وأتقنها مقابل إعطائهم دروساً فى اللغة العربية وقضى معظم حياته متنقلا فى البلاد الأجنبية ، فقد ارتحل إلى الشام وأقام بدمشق مدة طويلة وزار القدس الشريف وعاش فى بلاد الروم عدة سنوات وسكن بلد أشكوردة من بلاد الأرنؤود وتزوج بها ثم عاد إلى مصر . ولما مات تولى المشيخة

٢٠) الشيخ حسن القويسنى ، وكان كفيف البصر شريف النفس ذا هيبة عند الأمراء والعظماء فلما مات عام ١٢٥٤ ه تولى المشيخة

٢١) الشيخ أحمد بن عبد الجواد الصائم الصفتى المتوفى عام ١٢٦٣ ه ، ثم

٢٢) الشيخ إبراهيم بن محمد الباجورى أو (البيجورى) المولود عام ١١٩٨ ه والمتوفى عام ١٢٧٧ ه ، وكان عالماً عظيما وفقيها فاضلا ،

وقد حظى الأزهر فى أيامه بزيارات متكررة من عباس باشا الأول والى مصر الذى كان يحضر خصيصاً للاستماع إلى مايلقيه الشيخ الباجورى من دروس فكان يجلس على كرسى صغير من الجريد ينصت إليه . وعند خروجه كان ينثر خارج الأزهر شيئاً من النقود الفضية .

وحدث أن ثار على الشيخ الباجورى جماعة من مجاورى رواق المغاربة وهموا بضربه من أجل رواتب الجراية ، فرفع الأمر إلى الوالى الذى أرسل الجند إلى الرواق فقبضوا على الثائرين وأمر بنفيهم وغلق رواقهم .

ثم حدث أيام حكم سعيد باشا أن طلب المجاورون الشبان للانخراط فى سلك الجندية ولكنهم هربوا واحتموا بأروقة الأزهر . فاضطر بعض مشايخ القرى إلى الدخول إلى الأزهر للقبض على الفارين . فنهرهم الشيخ الباجورى وأمر المجاورين بضربهم وطردهم ، فقتل أحد مشايخ القرى ولم يعرف قاتله .

ولما كبر الشيخ الباجورى أعجزه كبر سنه عن متابعة القيام بواجبات المشيخة ، فأصبح الجامع ولا رئيس له ولا مدير ، فتسبب عن ذلك الكثير من الفتن بين المجاورين ، أهمها ماحدث بين المجاورين الشوام والصعايدة على مكان الدرس استعمل أثناءها العصى فأصيب الكثير من الصعايدة باصابات شديدة ، اضطروا معها إلى حمل عصيهم والهجوم على الشوام الذين احتموا برواقهم وقد أغلقوا بابه عليهم ، فتسلق عليهم الصعايدة سطح الرواق ، فاستغاث شيوخ الجامع وأعيان

الشوام بخير الدين باشا ضابط مصر ، فأرسل فصيلة جنود إلى الأزهر اقتحمته واعتدت على مجاورى الصعايدة بالضرب بدون تحقيق ، فقاومهم الصعايدة وأخرجوهم من الجامع ، فطلب الجنود المدد وأعادوا مهاجمة الجامع وقبضوا على الصعايدة وسجنوهم بالضبطية . وكان سعيد باشا فى ذلك الوقت فى الحجاز فلما عاد من الحج وعلم بالأمر ، غمره الغضب وأمر باحضار خير الدين باشا وعنفه ، بل يقال أنه ضربه بحذاءه وطرده ، ولم يعمر خير الدين باشا بعـــد ذلك طويلا ، إذ مات غريقا ، فاتخذ الأزهر عام ١٢٨١ هـ .

٢٣) مجلساً مكونا من أربع وكلاء انتخبهم العلماء ، وهم الشيخ أحمد كبوة العدوى المـالكى ، والشيخ إسماعيل الحلبى الحنفى ، والشيخ خليفة الفشنى الشافعى ، والشيخ مصطفى الصاوى الشافعى ، واستمروا فى المشيخة أربع سنوات ، ثم تولاها

٢٤) الشيخ مصطفى العروسى المولود عام ١٢١٣هـ ، وكان تقيا مصلحا فأبطل كثير من البـدع التى كانت بالجامع ، ومنع الاستجداء بقراءة القرآن حول الجامع وفى الطرقات ، ومنع غير المستحقين للتصدر للعلم من التدريس ، وله مؤلفات نفيسة فى التصوف منها : كشف الغمة ، والعقود الفرائد فى بيان معانى العقائد ، والهداية بالولاية . وعزم على إدخال نظام الامتحان فى الدراسة ، لولا أن فاجأه العزل عام ١٢٨٧ هـ فانتقلت مشيخة الأزهر إلى الحنفية ، فتولاها

٢٥) الشيخ محمد العباسى المهدى الحنفى مع الإفتاء وكان بدوره

مصلحا، حائزاً الثقة الخديو إسماعيل وتأييده فى جميع ما أدخله على الأزهر من إصلاحات . وقد اضطر خلال الفتنة العرابية عام (١٢٩٩ هـ — ١٨٨٢ م) أن يتراجع وقتا ما أمام الشيخ محمد الانبابى خصمه العنيد ، فعزل من المشيخة بناءاً على طلب العرابيين ، ثم عاد إليها بعد انتهاء الثورة وظل فيها إلى ٣ ربيع الثانى عام ١٣٠٤ هـ حيث استقال من الأزهر والإفتاء . وفى أيامه قلت بالأزهر الشرور والمفاسد وكثرت المرتبات والكساوى والجرايات التى أعاد ما أهمل منها ، وأدخل نظام الامتحان فى الجامع خصوصاً لمن يريد التصدر للتدريس ونفذ شروط جميع الواقفين على الأزهر ، ثم عقبه :

٢٦) الشيخ محمد الإنبابى ، وكان عالماً كبيراً ولكنه كان فى الوقت نفسه خصما عنيداً لكل إصلاح وتجديد ، وقد كلفته الحكومة بكتابة تاريخ الأزهر وفقا للمستندات الموجودة به ولكنه لم يفعل فلما ترك منصبه عام ١٣١٣ هـ خلفه

٢٧) الشيخ حسونه النواوى الحنفى (١٨٤٠ م — ١٨٩٩ م) وكان من أقرب مريدى الشيخ الإمام محمد عبده وعونا له على تنفيذ إصلاحاته وفى زمنه أنشئت المكتبة الأزهرية وبنى الرواق العباسى ، وأكثر من امتحان طالبي التدريس ، واستصدر قراراً بإبطال امتحان الحقانية وطلب زيادة مرتبات العلماء ومشايخ الأروقة والحارات .

وحدث فى أيامه أن اجتاح مصر وباء الكوليرا فأصيب به بعض

المجاورين الشوام فنقلت الحكومة أحدهم إلى إحدى المستشفيات لعلاجه ولكنه توفى ، فلما حاولت نقل آخرين رفض الطلبة واعتدوا على موظفى المستشفى بالضرب ، فرفع الأطباء الأمر إلى الحكومة فأسرعت بإرسال قوة من البوليس برآسة محافظ القاهرة ووكيل الحكمدار لعزل المريض فرفض المجاورون عزله ونشبت بينهم وبين البوليس معركة حامية أصيب فيها المحافظ إصابة شديدة فطلب مددا من البوليس واقتحم الجامع بعد خلع أحد أبوابه وهجم على الشوام المتحصنين فى رواقهم وأطلق النار عليهم فتفرقوا بعد أن قتل منهم خمسة وقبض على اثنين وثمانين كما قبض على ثلاثة وعشرين من المجاورين المصريين وحقق معهم فانحصرت التهمة فى أربعة عشر وأفرج عن الباقى ، أما المتهمين فقد أدينوا وحكم عليهم بأحكام مختلفة بعضها بالنفى والبعض الآخر بالسجن وأغلق الرواق سنة كاملة ثم ترك الشيخ النواوى مشيخة الأزهر ، فخلفه

٢٨) الشيخ عبد الرحمن النواوى الحنفى عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) ولكنه توفى فجأة بعد شهر واحد من توليته المشيخة ، فخلفه فى السنة نفسها :

٢٩) الشيخ سليم البشرى فى الخميس ٢٨ من صفر عام ١٣١٧ هـ ، وكان شيخا للمالكية منذ عام (١٣٠٥هـ – ١٨٨٨م) وسار فى المشيخة بالحزم ولم تمنعه من القيام بدروسه ، ولكنه استقال فى ذى الحجة عام ١٣٢٠ هـ ، فخلفه

٣٠) السيد على بن محمد الببلاوى الذى استقال فى المحرم من عام

١٣٢٣ هـ وتوفى فى ذى القعدة من نفس العام ، فخلفه

٣١) الشيخ عبد الرحمن الشربينى ولـكنه استقال عام ١٣٢٧ هـ ، فعاد إلى المشيخة مرة أخرى

٣٢) الشيخ حسونة بن عبد الله النواوى ولـكنه استقال فى نفس العام ، فخلفه للمرة الثانية أيضا

٣٣) الشيخ سليم البشرى إلى أن توفى فى ظهر يوم الجمعة ٤ ذى القعدة عام ١٣٣٥ هـ ، فتولاها

٣٤) الشيخ أبو الفضل الجيزاوى فى ١٤ ذى الحجة من نفس العام وكان شيخا للمالـكية من ٢٠ صفر عام ١٣٣٦هـ ، واستمر شيخا للأزهر حتى عام ١٣٤٨ هـ ، ثم عقبه

٣٥) الشيخ محمد مصطفى المراغى الحنفى ، من عام ١٩٢٨ م إلى عام ١٩٣٠ م فاهتم بإعادة تنظيم الأزهر على نطاق واسع وعلى شكل أحدث رغبة فى جعله أقرب إلى نظام الجامعات الأوروبية حتى يتفق وحاجات العصر الحاضر فى مصر . فرفع إلى جلالة المغفور له الملك فؤاد مشروعاً بإصلاح هـذا المعهد ، . فصدرت إرادة جلالته بالقانون المعروف بالقانون رقم ٤٩ لعام ١٩٣٠ الذى تضمن الكثير من الاصلاحات والتغييرات اشتملت جميع نواحى الأزهر من أساتذة ومجاورين وعلوم وجراية ، وقد رغب الشيخ المراغى فى إصدار المزيد من القوانين الخاصة بتحسين حال الأزهر ورفع مستواه وتخليد ذكرى علماءه وعظماءه الأفاضل ولـكنه استقال عام ١٣٤٨ هـ ، فعقبه

٣٦) الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ، وكان عالما فاضلا ومصلحا كبيراً ، اشتهر بكتابه (العلم والعلماء ونظام التعليم) الذى أصدره عام ١٩٠٤ م ، وقد تكلم فيه عن العلماء والمدارس الدينية والعلوم وطرائق التعليم . وأهم مافى الكتاب التوفيق بين أصول الإسلام الصحيحة وبين كل ماهو حسن بغض النظر عن مصدره وبيئته ، فالاسلام يجب أن لايؤخذ فقط عن أوروبا ، بل يؤخذ كذلك عن الصين واليابان . وأنه يجب أن تكون الدعوة إلى الإسلام ورسالته من أهم المواد التى يجب أن تدرس بالأزهر . وهو يدعو فى كتابه إلى عقد مؤتمر إسلامى كل كل عام ويرمى كذلك إلى تخليص الأزهر من البدع والخرافات ، كما كان يحذر الجمهور من الفلسفة النظرية ، والكتاب شاهد صادق على صفاء عقيدة الشيخ الظواهرى وطموحه نحو المثل الأعلى ، فلما استقال من المشيخة عام ١٣٥٤ هـ ، عاد إليها

٣٧) الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ويرجع إليه الفضل فى وضع مشروع المدينة الأزهرية التى تجمع المعاهد المختلفة ومساكن الطلبة والمكتبة الأزهرية على أحدث نظام وأبدع تنسيق ، وقد أوقف تكملة تلك المدينة بما فيها المكتبة للظروف الحربية وغلاء أسعار البناء .

وكان الشيخ المراغى إماما من أئمة المسلمين على قدره وسمو مكانته . فهو أحد تلاميذ الشيخ الإمام محمد عبده ، بل كان أنجب تلاميذه لذلك اختاره الإمام ليكون قاضيا فى السودان ومايزال يرتقى بها حتى أصبح بعد مضى بضع سنوات قاضى قضاتها ، وكان صديقا حميما للسيد المهدى

والسيد الميرغنى لما عرف عنه من دماثة خلق وعلو همة إلى أن تولى مشيخة الأزهر أول مرة . وكان لعلمه الغزير الواسع وثقافته الممتازة أهلا لتولى هذا المنصب الرفيع لثانى مرة فنهض بالأزهر نهضة عظيمة مباركة متمشيا خطوات أستاذه الإمام .

وكان الشيخ المراغى عالما فاضلا محبا للأدب حافظا للشعر. رأى أن أستاذه الإمام قد فسر جزء عم فأراد أن يتم تفسير ما بقى من القرآن الكريم ، ففسر جزء تبارك وأتمه قبل موته بقليل واستعان فى تفسيره بالعلوم الحديثة فكان بحثا قيما يدل على ما كان عليه الشيخ من التعمق فى العلم والدين . وهو أول من ابتكر فكرة الدروس الدينية التى كان يلقيها تباعاً فى رمضان وفى غيره من المناسبات بين يدى جلالة الملك فاروق وكان يحضرها جمع غفير من علية المصريين وعظماءها فلما توفى فى ١٤ رمضان ١٣٦٤ هـ الأربعاء ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، خلفه

٣٨) الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكان أستاذا للفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، ثم وزير الأوقاف أكثر من مرة ، وهو عالم فاضل كثير التواضع يأمل الكثيرون أن ينال الأزهر على يديه الشىء الكثير من لإصلاح والرقى .

المكتبة الأزهرية

اكتنظ الأزهر منذ الخلفاء الفاطميين بكثير من الكتب القيمة والمؤلفات الثمينة والمخطوطات والمصاحف التى كتب بعضها بالذهب . وكان أعظم تلك الكتب كتاب العلامة يعقوب بن كلس وزير العزيز ابن المعز لدين الله الفاطمى فى الفقه الإسلامى الشيعى على مذهب الاسماعيلية وكان يعرف باسم (الرسالة العزيزية) وكان ابن كلس يجلس فى الأزهر ليقرأ كتابه هذا على الفقهاء والأدباء وأكابر رجال القصر .

وعند ما ظهر نظام الأروقة أنشىء بكل رواق مكتبة خاصة به ، ابتدأت بالقليل من الكتب التى كان يقفها عليه أهل الخير ، ثم أخذت هذه الكتب فى الزيادة بمرور الزمن حتى أصبح لكل رواق مكتبة محترمة ، كان الانتفاع بها متروكا لمن ينشده من أهل الرواق وغيرهم . ولم يعرف تاريخ دقيق لإنشاء هذه المكتبات .

ويكثر بالأزهر المخطوطات التى بلغت عام ١٩٤٣م ٢٤٠٠٠ مخطوط تقريباً ، وهذا نتيجة ما كان يتبعه العلماء من طرق التدريس ، فكان الأستاذ يستوعب موضوع الدرس فى ذاكرته أو يكتبه فى كراسة خاصة

ثم يلقيه على تلاميذه الذين كانوا يكتبون ما يملى عليهم ، فإذا ما تجمع لدى الأستاذ أو طلبته مجموعة من هذه الدروس عد ذلك كتابا وأصلا ومرجعا للعلم . فتودع هذه المجموعة الخطية مكتبة الأزهر والأروقة لتكون مرجعاً للطلاب والعلماء . فازدخرت مكتبة الأزهر بكثير من تلك المؤلفات الخطية الثمينة الغنية بالآراء الفقهية والدينية . وأخذ الكثير من العلماء يضيفون إليها الكثير من الشروح والحواشى وهكذا تكونت على ممر السنين مكتبة مفعمة بدرر الكتب النادرة . فقد احتوت فى زمن من الأزمان على مايقرب من ستة آلاف مجلد ومخطوط فى علوم الطب والتوحيد والمنطق والرياضة والبيان والنحو والبلاغة والفلك وتقويم البلدان .

وعمل لمكتبة الأزهر عام ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) فهارس دونت فيها جميع مافى المساجد والتكايا وأروقة الأزهر وحاراته ، وبلغ عدد المجلدات المعروفة ١٨٥٦٤ مجلدا ولكن لا يوجد منها الآن إلا النذر اليسير ، بل أن الفهارس نفسها سرقت ثم أعيدت بالشراء إلى المكتبة عام ١٩١١ م .

وقدمرت بالأزهر أعصراً ازدهر فيها العلم وكثر بأروقته العلماء الجهابذ من أهل مصر أو أجانب عنها تركوا بها ثروة كبيرة من المخطوطات والكتب فى الفقه واللغة والآداب الاسلامية ، أشهر هؤلاء الإمام عز الدين بن عبد السلام وناصر الدين بن المنير وتقى الدين بن دقيق العيد وقاضى القضاة تاج الدين بن عبد الوهاب وشيخ الاسلام زكريا

الأنصارى وجلال الدين السيوطى وابن هشام والإمام الأصبهانى وابن مالك وابن حيان وابن خلدون وابن منظور الافريقى وغيرهم .

وبجانب تلك العصور الباهرة ، مرت بمصر أوقات عجاف فى العلم والتأليف ، فقل عدد العلماء والمؤلفين ، فندر بذلك الإنتاج الأدبى ، ومما زاد الطين بلة وقوع مصر تحت الحكم التركى ، فنقل سليم شاه معظم الكتب الثمينة والتآليف القيمة والمخطوطات العلمية من الأزهر وغيره من المعاهد والجوامع إلى بلاده وحذا حذوه كثير من الأمراء العثمانيين الذين توالوا على حكم مصر ففقدت المكتبة الأزهرية معظم كتبها ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تعرض ما بقى من تلك الكتب إلى العطب والتمزيق من جراء الثورات فى مصر والاضطرابات التى كانت بين المجاورين فى الأزهر .

فلما جاء الشيخ الإمام محمد عبده وجد أن كثيراً من نفائس الكتب التى كانت مودعة بمكتبات الأروقة قد نهبت وأرسلت إلى أوروبا بواسطة سماسرة الكتب والضعفاء ممن كان مقيما على أمر تلك المكتبة والذين لم يكونوا على معرفة تامة بقيمة تلك الكتب وأهميتها ، فباعوها بثمن بخس مع أن معظم تلك الكتب كانت وقفا على الأزهر والعلم والعلماء ، ووجد أن الباقى منها قد أهمل أمره وترك للحشرات والرطوبة والأتربة تعيث فيها فساداً ، فقد تلفت أوراقها وبليت جلودها وتلاشت الكتابة منها حتى تعذر قراءتها ، فبذل الإمام مجهوداً كبيراً فى تكوين مكتبة ذات قيمة ، لتكون مرجعا هاما لطلبة الأزهر وعلمائه وساعده فى

ذلك كثير من مشايخ الأزهر ، وعرض الإمام الأمر على سمو خديو مصر عباس الثانى فوافق عليه وأصدر كريم أمره فى شهر مايو عام ١٨٩٧ م ١٣١٤ هـ بإنشاء مكتبة للأزهر باسم (المكتبة الأزهرية) .

وقام الإمام يساعده وزارة الأوقاف بإعداد مدرستا الإقبغاوية والطيبرسية لتكونا مكانا للمكتبة الجديدة . فأصلحا وزودا بما يلزمهما من دواليب وخزائن ثم جمع فيهما كل ماتفرق فى الأروقة من الكتب والمخطوطات وما وهب إلى الأزهر فى ذلك الوقت وما اشترى من مال بعض الوقفيات المحبوسة على الكتب .

وبذل الإمام مجهوداً كبيراً فى إقناع أهل الأروقة بالتنازل عما فى أروقتهم من كتب وعن فائدة تكوين مكتبة مستقلة تضم أمهات الكتب والمؤلفات . فوافق الجميع ما عدا أهل رواق المغاربة ورواق الصعايدة الذين لم تضم مكتبتهم إلى المكتبة الأزهرية إلا عام ١٩٣٦ م فقط .

وزيادة على ذلك فقد عانى الامام صعوبات جمة فى ترميم الكتب وترتيبها للحالة السيئة التى وجدت عليها . وقد كانت تلك الكتب تحمل من الأروقة إلى مكانها الجديد فى زكائب وغرارات ثم تفرغ فى أكوام من الورق الممزق المملوء بالعناكب والتراب ، فكانت ترتب وتنظم وتوضع فى أماكن نظيفة . كما قيدت أسماء الكتب فى دفاتر خاصة بأعداد متسلسلة .

وقد أعدوا لكل فن أماكن خاصة به ، فكتب الفقه فى مكان وكتب اللغة العربية فى مكان آخر . ومن الصعب تقدير الوقت والمجهود الذين

بذلا فى هذه العملية ، إلا أنه يتبين لنا من النتيجة العظيمة التى وصلوا إليها أنه كان مجهوداً جبارا . فقد كان بالأروقة كتب مقسمة بينهم ، كل فصل فى رواق ، كما وجد كثير من الكتب مدشوته بعضها مع بعض لا يمكن تمييزها ، وكان قد أمر بحرقها لولا أن تداركها الإمام فأنقذها من الحريق وقد وجد بين هذا الدشت كثير من المصاحف المخطوطة القيمة .

وقد بذل الإمام مجهوداً مشكوراً فى تنمية المكتبة وزيادة كتبها ، فلم يكتف بما وجده فى الأروقة ، بل طلب إلى علماء مصر ورجالاتها بماله من مكانة ونفوذ عظيمين أن يقوموا بمساعدة تلك المكتبة بمنحها ما تيسر لديهم من الكتب والمؤلفات ، فلبى نداءه الكثيرون كان أولهم الشيخ حسونة النواوى الذى منحها مكتبته الخاصة أثناء حياته .

ولم يكتف الأزهر بذلك ، بل أخذ يشترى الكتب من التركات والمكاتب والمؤلفين وينقل منها ما ندر كتابته ويصور ما يصعب نقله فضاقت المكتبة بالكتب فضم إليها بعض أجزاء الأزهر بعد إصلاحها وإعدادها ، ثم أنشىء عام ١٩٣٦ م بناءاً جديداً ملحقا بالإدارة العامة لتتسع للكتب التى ما فتىء الأزهر يشتريها عاما بعد عام .

ومما حفظ على مكتبة الأزهر كتبها ، أنه حينما أنشئت المكتبة الخديوية أيام إسماعيل العظيم عام ١٨٧٠ م ، نقل إليها جميع ما كان فى المدارس من كتب ما عدا الأزهر فقد احتفظ بكتبه ومؤلفاته ، وإن كان ذلك لم يكن فى مصلحة المستشرقين الذين لم يستطيعوا للأزهر اقتحاما

للاطلاع على ما فيه من نفائس ومخطوطات وكنوز علمية .

وبالمدرستين الأقبغاوية والطيبرسية الآن المكتبة العامة وفيها جميع المؤلفات الخاصة بالدراسة الأزهرية ، أما المبنى الجديد فيحتوى فقط على مكتبتى الشيخين المغفور لهما الامبابى وبخيت . والمدرستان غير وافيتين بالغرض من إنشاء مكتبة ، فهما تفتقران إلى قاعة مطالعة متسعة ومكان للادارة ، وكانت لهما قاعة مطالعة حتى عام ١٩٠٩ م ثم ألغيت ليحتلها بعض الكتبة .

وتنفرد المكتبة الأزهرية بتقليد خاص بها يساعد على اتساع نطاق الاستفادة من كتبها ، وهو جواز استعارة ملزمات من الكتاب الواحد وتسمى فى العرف الأزهرى (التغييرة) ، فإذا ماقرأ المستعير ملزمة أعادها ليستعير غيرها . وقد بلغ عدد التغايير التى استعيرت من المكتبة عام ١٩٤٢م ثلاثة آلاف عدا ما استعير من مكتبات الكليات والمعاهد .

والمكتبة الأزهرية تقوم برسالة ثقافية عظيمة لا لطلبة الأزهر فقط بل لكل راغب فى الاطلاع والبحث فهى تقدم له مايرغب من مصادر علمية نادرة من المخطوطات والمطبوعات ومن كتب علمية فى مختلف الفنون . وتتبادل المكتبة مع المكتبات الأخرى المخطوطات النادرة لنسخها أو تصويرها .

وتحتاج تلك المكتبة إلى المال لتموينها بالكتب التى تظهر تباعاً لتستطيع مسايرة النهضة الحديثة . وكان الأزهر يرصد كل عام مبلغا من

المال فى ميزانيته لشراء الكتب تحت رقابة لجنة خاصة كونت فى ٢٠ شوال عام ١٣٢٧ هـ (٣ نوفمبر ١٩٠٩) فزاد عدد الكتب فى المكتبة زيادة كبيرة، ولكن تلك الحركة فترت أخيراً وبطلت عملية الاستنساخ لإنشاء المطابع وقل شراء الكتب.

وتعتبر المكتبة الأزهرية بمثابة الأم بالنسبة لمكتبات الكليات والمعاهد تغذيها بالكتب اللازمة لها فى جميع الفنون وبخاصة الكتب التى نفدت طبعتها أو تعذر شراءها لندرة وجودها، كما أن لجنة الفتوى بالأزهر ومجلة الأزهر تعتبرها المراجع الأولى لها، كما توضع منها جميع أسئلة الامتحانات للأزهر والمعاهد المختلفة.

الفنون التى بالمكتبة وعدد مجلداتها

ابتدأت المكتبة عند إنشاءها بقليل من الكتب والمؤلفات والمخطوطات، أخذت تتضاعف بمرور الزمن بطريق الإهداء والنسخ والشراء... ابتدأت عام ١٨٩٧ م بما يقرب من ٧٧٠٣ كتاب منها ٦٦١٧ حصلت عليها بطريق الإهداء و ١٠٨٦ بطريق الشراء، وكان عدد فنونها ٢٧ فنا ثم أصبحت عام ١٩٤٣؛ ٥٨ فنا وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلدا وفيها كثير من أمهات الكتب ونادرها من المصاحف والقراءات والتفسير والحديث وفقه أبى حنيفة والتاريخ من عصور متقدمة، أما مخطوطات القرن التاسع عشر وما بعده من المصاحف والكتب فهى كثيرة جداً والكتب بالمكتبة موزعة كالآتى:

الرقم	الفن	العدد	الرقم	الفن	العدد
١	المصاحف	٢٩٤٤	١٩	الآداب والفضائل	١٨٢٩
٢	علوم القرآن	١٠٠	٢٠	الأدب	٥٩٧٤
٣	القرآن	١٣٧٧	٢١	اللغة	١١٨
٤	التفسير	٥٢٧٠	٢٢	التصوف	١٨٨١
٥	الحديث	٨٦٢٤	٢٣	التاريخ	٥٠٨٦
٦	المصطلح	١٠٠٣	٢٤	المنطق	١٤٩٩
٧	الأصول	٣٤٩٤	٢٥	فنون متنوعة	٣١٢٠
٨	الفقه العام	٩٦٤	٢٦	الأدعية	١١٢٧
٩	فقه حنفي	٦٩٤٨	٢٧	الحكمة والفلسفة	٤٦٦
١٠	« شافعي	٤٨٧٩	٢٨	الفلك	٤٢٨
١١	« مالك	٤١٣٠	٢٩	تقويم البلدان	٣٠٣
١٢	« ابن حنبل	١٦٩٨	٣٠	القوانين واللوائح	٦٤١
١٣	المجاميع	١٥٩٣	٣١	الحساب	٥٠٥
١٤	الأصول	٣٤٩٤	٣٢	الطب	٦٣٢
١٥	التوحيد	٣٨٢٨	٣٣	الميراث	٦٣٣
١٦	البلاغة	٢٥٥٤	٣٤	أخلاق وتربية واجتماع	٦٤٦
١٧	النحو	٤٥٣١	٣٥	أدب البحث	٢٣٧
١٨	الصرف	٩٨١	٣٦	العروض	٢٥١

الرقم	الفن	العدد	الرقم	الفن	العدد
٣٧	الوضع	١٤١	٤٨	حكمة التشريع	٢٥
٣٨	اللغات الأجنبية	٢٧٢	٤٩	اقتصاد سياسى	٦٧
٣٩	« التركية	٢٣٠	٥	هيئة	٢٠
٤٠	إملاء وخط	١٠٠	٥١	فراسة وكف	١٧
٤١	صور ورسوم	١٣٤	٥٢	تعبير الرؤيا	٥٤
٤٢	كيمياء وطبيعة	١٢٢	٥٣	شرائع غير إسلامية	٤٢
٤٣	التجارة	١٩	٥٤	طبوغرافيا	٣
٤٤	الهندسة	٦٧	٥٥	مخطوطات	٦٣٩٥
٤٥	الجبر	٣٤	٥٦	الموسيقى	٧
٤٦	الزراعة	٦٦	٥٧	مسك الدفاتر	٣
٤٧	فقه الشيعة	٢٧	٥٨	ضرب الرمل	٥٠

المكتبات الخاصة بالمكتبة الأزهرية

بالمكتبة الأزهرية مكتبات خاصة حملت الغيرة الدينية أصحابها أو أو ورثتهم على إهدائها للأزهر ليكون نفعها وقفا على العلماء وطلبة العلم. وبعضها يستقل بخزائنه كشروط أصحابها ومسجلة ومفهرسة ضمن المكتبة العامة ويجرى الانتفاع بها دون تمييز. وأهمها :

١) مكتبة سليمان باشا أباظة ، وقد أهداها ورثته للأزهر عام ١٨٩٨ م عملا بمشورة الإمام محمد عبده وهى أنفس المكتبات الخاصة بالأزهر ، يستأثر منا التاريخ والأدب بغالب كتبها ، وتمتاز بكثرة المخطوطات وبخاصة فى الفنين المذكورين وعد مجلداتها ١٤٨٤ مجلدا ، جملة صالحة من مطبوعات أوروبا .

٢) مكتبة حليم باشا ، وقد وزعت بين الأزهر ووزارة المعارف فى أغسطس سنة ١٩١٢ وخص المكتبة الأزهرية منها ٢٨٥٧ مجلدا ، ويظهر من فنونها القراءات والحديث والتصوف والطب والفلك والتاريخ وبها كتب فى بعض الفنون باللغة التركية والفارسية وكثير من كتبها بخطوط جيدة موشاة بالذهب .

٣) مكتبة الشيخ عبد القادر الرافعى المتوفى عام ١٣٢٣ هـ ، وقد

وقفت بخزائنها الخاصة بها على الأزهر فى مارس عام ١٩٢٧م ووضعت فى حجرة خاصة بها وعدد مجلداتها ١٤٥٧ مجلدا وهى أغنى المكتبات الخاصة بفن الفقه الحنفى وبهامخطوطات فى هذا الفن من النوادر العالمية كشرح السندى على الدر المختار .

٤) مكتبة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية المتوفى عام ١٩٣٥م . وقفها فى حياته بخزائنها الجميلة ، ونفذ ورثته رغبته عام ١٩٢٨م وعدد مجلداتها ٣٣٦٥ مجلدا فى فنون مختلفة يغلب فيها الفقه الحنفى .

٥) مكتبة الشيخ الامبابى شيخ الجامع الأزهر المتوفى عام ١٣١٣هـ ؛ جعل مقرهامنزله بالظاهر وجعل لهامغيرآ بمرتت أوقفه عليه ، وخشيت وزارة الأوقاف عليهامن التلف فأهدتها إلى الأزهر عام ١٩٢٨ م وعدد مجلداتها ١٤٥٢ مجلدا ، وبها مخطوطات نادرة فى الفقه الشافعى .

٦) مكتبة بسيم أغا، كانت برواق الجبرت ، ونقلت بخزائنها إلى المكتبة الأزهرية عام ١٩٢٥ م وبها نحو ألف مجلد فى مختلف الفنون .

٧) مكتبة الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر المتوفى عام ١٢٩٣هـ أهداها ورثته إلى الأزهر عام ١٩٣٨ م وعدد مجلداتها ٨١٨ مجلداً ، ومعظم كتبهابخطوط قديمة وبعضها حديثة وبهانوادر فى النحو والتاريخ .

٨) مكتبة الشيخ ابراهيم السقا وأخيه الشيخ عبد العظيم السقا ، أهديت إلى المكتبة الأزهرية عام ١٩٢٧ م وعدد مجلداتها ٥٩٠ مجلدا وبها نوادر من الكتب الخطية .

٩) مكتبة إبراهيم بك حفظى ، أهديت إلى المكتبة الأزهرية عام ١٩٢٢ م وعدد مجلداتها الآن ٣٩٢ مجلدا ، وهى فى نمو مستمر ، فقد وقف عليها مهديها مبلغاً من المال سنويا نصفه لشراء الكتب والآخر للمغيرين بها .

١٠) مكتبة الشيخ حسونة النواوى شيخ الجامع الأزهر والمتوفى عام ١٩٢٥م وهى فى فنون مختلفة ، أهداها إلى المكتبة الأزهرية عقب إنشائها لتكون نواة لها ولحمل غيره على تعضيدها .

١١) مكتبة الشيخ الجوهرى ، أهديت إلى الأزهر عام ١٩٢٨ م وعدد مجلداتها ٣٤١ مجلدا .

١٢) مكتبة الشيخ عبداللطيف الفحام المتوفى عام ١٩٤٣ م أهداها ورثته عقب وفاته إلى الأزهر ومجلداتها ألف مجلد .

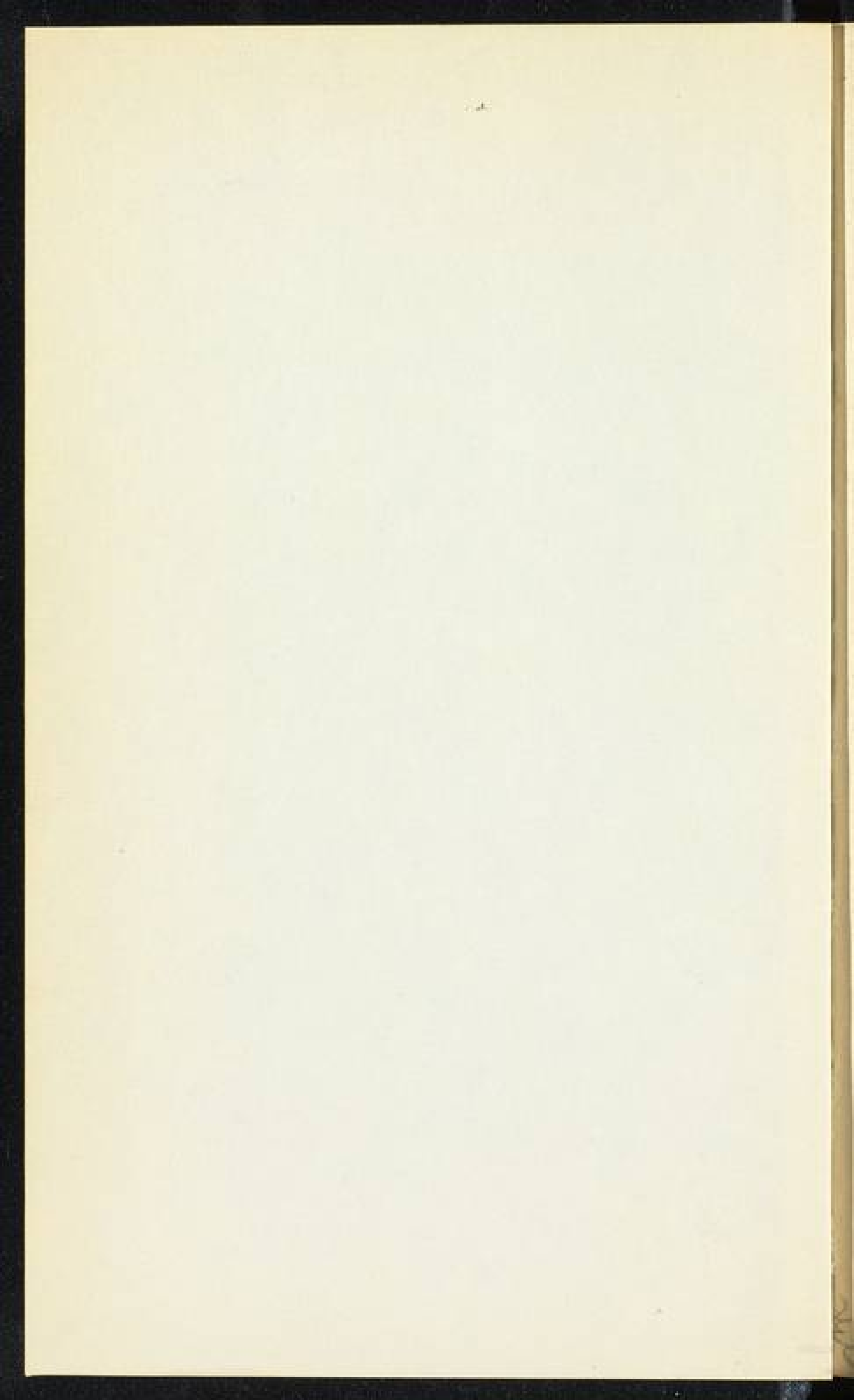
وبالمكتبة الأزهرية مكتبات أخرى كمكتبة رضوان باشا ومختار باشا وثابت باشا ورشيد باشا وبعض مكتبة مدرسة القضاء الشرعى وبعض مكتبة زكى باشا ومكتبة الصعايدة .

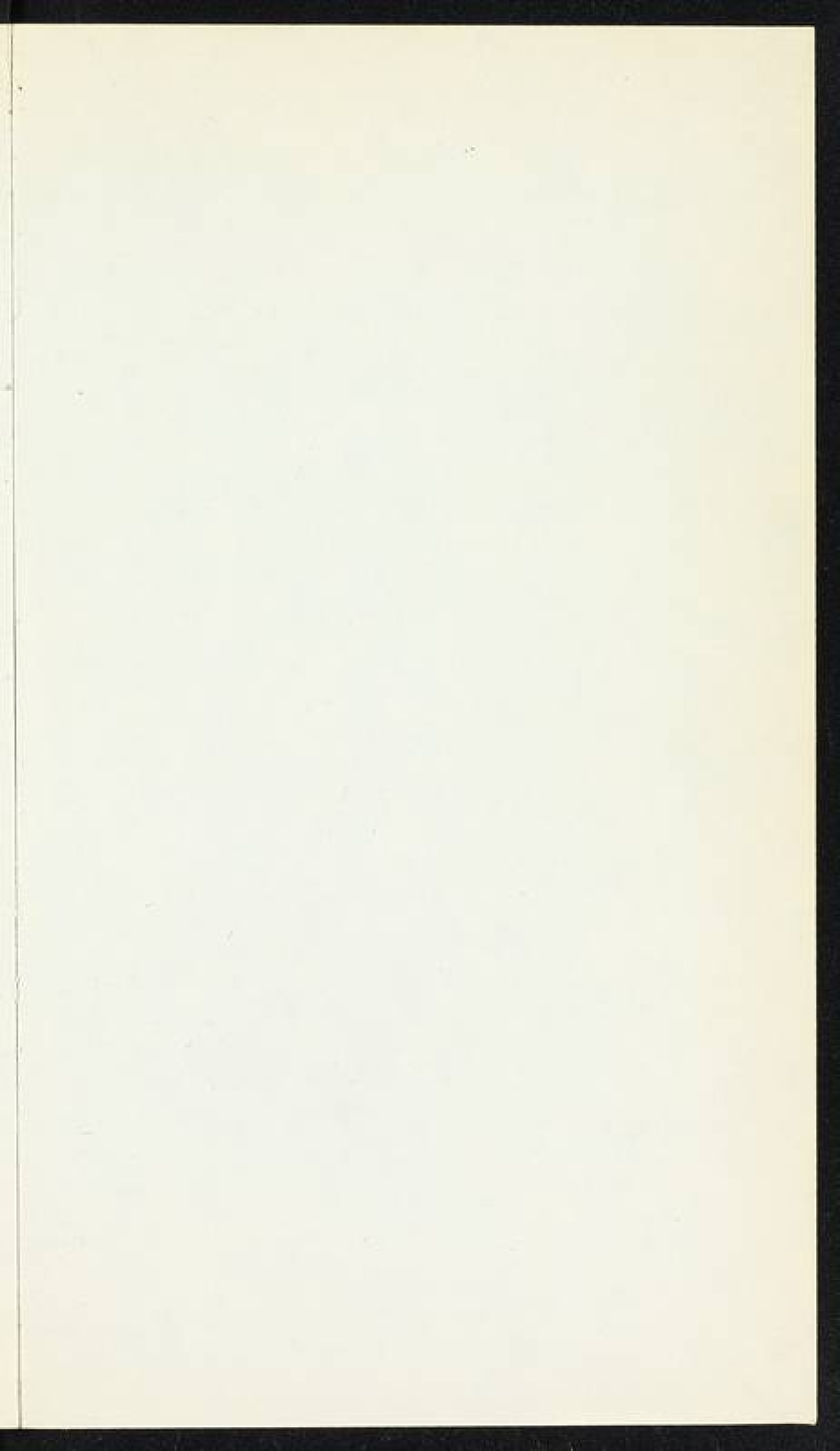
أما مكتبة الامام الشيخ محمد عبده ، فقد خص بها الجمعية الخيرية الاسلامية دون الأزهر ، ولكن الأزهر طالب بها وألح فى طلبها حتى وافقت الجمعية أخيرا على منحها للأزهر الذى سيهىء لها مكانا لائقا بها فى مكتبته الخاصة وسيحتفل بنقلها إلى الأزهر احتفالا لائقاً .

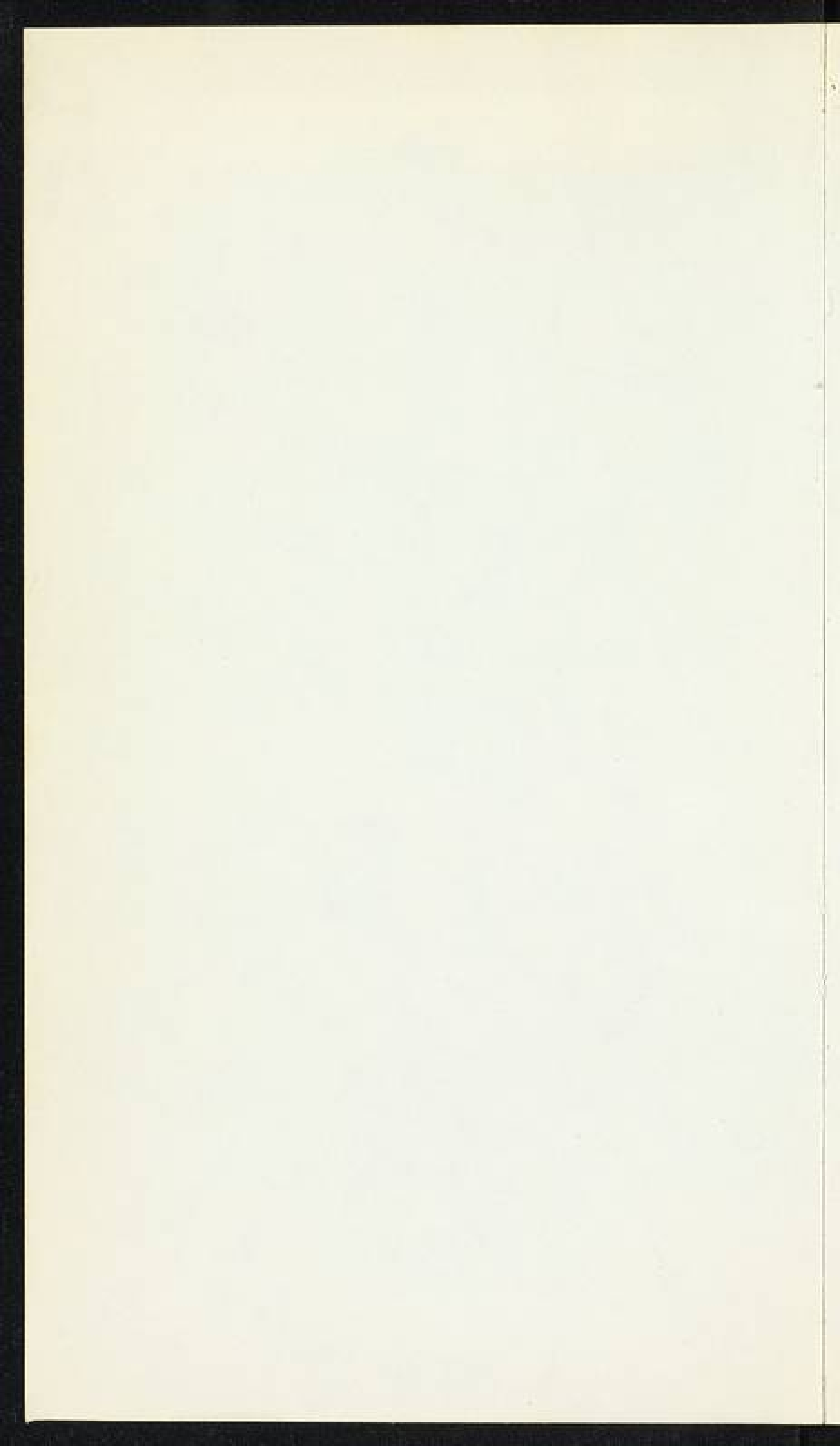


مراجع الكتاب

١) الخطط المقريزية — للمقريزى
٢) « التوفيقية — لعلى باشا مبارك
٣) دائرة المعارف الاسلامية
٤) الفاطميون فى مصر : للدكتور حسن ابراهيم حسن
٥) جوهر الصقلى : « على «
٦) الاسلام والتجديد فى مصر ترجمة الأستاذ عباس محمود
٧) تقرير لجنة إصلاح الجامع الأزهر لفتحى باشا زغلول
٨) محمد على الكبير : لشفيق بك غربال
٩) محمد عبده : للدكتور عثمان أمين
١٠) « « للأستاذ أحمد الشايب
١١) مجلة الأزهر
١٢) تاريخ الأزهر للدكتور عبد الواحد وافى
١٣) كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر للشيخ سليمان رصد الحنفى
١٤) تاريخ الأزهر : لمصطفى بيرم
١٥) الأزهر لمحى الدين الخطيب
١٦) تاريخ الجامع الأزهر : للاستاذ عبد الله عنان
١٧) حفلة الافتتاح الرسمى لكلية أصول الدين
١٨) الهلال العدد الخاص بالعمارة الاسلامية
١٩) تراث الإسلام : ترجمة نخبة من خريجى الجامعة








MAR 69
N. MANCHESTER,
INDIANA

